تَبْصيرُ أولي الألباب

بشرح الأصول الستة

لمحمد بن عبد الوهاب

كتبه

أبو عبد الرحمن خليل بن عبد الله بن أحمد الحمادي

تقديم

الشيخ الفاضل

أبي عبد الله عبد الرحمن الشميري

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولى ١٤٤٥/٢٠٢٤

مقدمة الشيخ الفاضل

أبي عبد الله عبد الرحمن الشميري

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

فقد طالعت شرح الأصول الستة للشيخ الفاضل أبي عبد الرحمن خليل بن عبد الله الحمادي حفظه الله ورعاه فوجدته شرحًا جميلاً أجاد فيه وأفاد.

فجزاه الله خيرًا وبارك فيه وفي علمه ووفقه لنفع المسلمين.

كتبه

أبو عبد الله

عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري

في ١٣ شوال ١٤٤٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية هذه الرسالة

إنَّ الْحَمْد لِلَّهِ نَحْمَدُه، وَنَسْتَعِينُه، وَنَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بِاَللَّهِ مَن شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنّ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَن يَهْدِه اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَه، وَمَنّ يُضْلِل فَلا هَادِي لَه، وَأَشْهَدُ أن لا إلَه إلَّا اللَّهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَه، وَأَشْهَدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسوُلُه، أمَّا بعد:

فإنَّ هذه الرسالة رسالة الأصول الستة لها أهمية عظيمة، بحيث يتوجه على طالب العلم دراستُها وفهمها، بل وعلى عوام الناس أيضًا وذلك لأمور ومنها:

١. أنَّ هذه الرسالة اشتملت على ستة أصولٍ عظيمة وهي:

الأول: الإخلاص وبيان ضده وهو الشرك.

الثاني: الاجتماع في الدين والنهي عن التفرق فيه.

الثالث: السمع والطاعة لولاة الأمر.

الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، ومن تشبه بهم وليس منهم.

الخامس: بيان من هم أولياء الله.

السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة.[١]

٢. أنَّ هذه الأصول الستة مستنبطة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

٣. أنَّ كثيرًا من الناس لا يفقه حقيقة هذه الأصول مع وضوحها وبيانها.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٧/ ١١١)

٤. لأنَّ مخالفة الناس في القرون المتأخرة لهذه الأصول شديدة على الرغم من شدة وضوحها.

٥. أنَّ هذه الأصول الستة هي أهم ما يقوم عليه الدين الصحيح، وبالخلل فيها يكون الخلل في دين الناس، سواءٌ كان هذا الخلل كليًا أو جزئيًا.

فلأجل ذلك رأيت أن أشرحها شرحًا مقتضبًا؛ أوجزت فيه اللفظ، وتحريتُ إيضاح المعنى ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، مقتبسًا لذلك مِن علوم من سبقنا، ناهلاً من سلسبيل سلفنا الصالح؛ الذين أنار الله لنا بهم الطريق، وأوضح لنا السبيل، فلهم علينا أن نقول: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [سورة الحشر: ١٠].

راجيًا من المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبصر بهذا الكلام من شاء من خلقه، وأن يجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، وأن يرزقنا الهدى والسداد، وأن يلهمنا رشدنا، ويقينا شرَّ أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنَّه هو الوهاب.

وأشكر لشيخي الكريم أبي عبد الله عبد الرحمن الشميري الذي تفضَّل بالاطلاع على هذه الرسالة وتقديمها، فجزاه الله عني خيرًا؛ وسائر مشايخنا وعلمائنا.

ونسأل الله أن يثبتنا وإياهم على الحق حتى نلقاه. والحمد لله ربِّ العالمين.

قال شيخُ الإسلامِ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ أَعجَبِ العُجابِ، وَأَكْبَرِ الآياتِ الدالَّةِ عَلى قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْغَلاَّبِ: سِتَّةُ أُصولٍ بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى بَيانًا وَاضِحًا لِلعَوامِّ فَوقَ ما يَظُنُّ الظانُّون، ثمَّ بَعدَ هَذا غَلِطَ فيها كَثيرٌ مِن أَذكِياءِ الْعَالَمِ، وَعُقَلاءِ بَني آدَمَ؛ إِلا أَقَلَّ الْقَلِيلِ.

قوله: بسم الله الرحمن الرحيم:

افتتح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالته بالبسملة كما هو حال كثير من الرسائل المختصرة التي يفتتحها أصحابها بالبسملة؛ اقتداء بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ الذي ابتدأ بالبسملة، واقتداء برسولنا الكريم الذي كان يفتتح رسائله للملوك بالبسملة، وسار على ذلك العلماء المتقدمون.

قوله: مِنْ أَعجَبِ العُجابِ

قاله الشيخ من باب التعجب والتعظيم لهذا الأمر: فعَجِب يَعْجَبُ عَجَبًا، وأمرٌ عجيب، وذلك إذا استُكْبِر واستُعْظِم.

قال الخليل: إنَّ بين العَجِيب والعُجابِ فرقًا. فأمّا العجيب والعَجَب مثله فالأمرُ يتعجَّب منه، وأمّا العُجَاب فالذي يُجاوِز حدَّ العجيب. اهـ[1]

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ١٩٧)

وأتى الشيخ بأفعل التفضيل بقوله: (**أَعجَب**) لبيان أنَّ ما سيذكره من الأمر في غاية التعجب منه حتى يتجاوز به حد العجيب، وما ذاك إلا لعظيم ما سيذكره.

قوله: وَأَكْبَرِ الآياتِ الدالَّةِ عَلى قُدْرَةِ الْمَلِكِ الْغَلاَّبِ:

الآيات: جمع آية؛ وهي العلامة والعبرة.

فآيات الله هي ما يكون فيها من الأمور العجيبة، والعبر المختلفة والعلامات الدالة على عظيم قدرته سبحانه.

وعبَّر المصنف بقوله: **أكبر الآيات**: للتدليل على أنَّ ما سيذكره في هذه الرسالة من الأصول الستة هي من أكبر العلامات العظيمة الباهرة التي تدل على عظيم قدرته سبحانه وتعالى.

قوله: الْمَلِكِ الْغَلاَّبِ:

الملِك: اسم من أسماء الله الحسنى دل عليه الكتاب والسنة والإجماع.

ومعناه: هو الموصوف بصفة الملك وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر، والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد، ومماليك، ومضطرون إليه. اهـ[1]

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١١٦].

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى (ص: ٩٢).

وفي الصحيحين أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**».

قوله: الغلاب:

الغلاب ليس من أسماء الله، ولكن يوصف ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّه غلاب: أي قاهر لغيره.

وهو من معاني العزيز، قال ابن القيم في نونيته:

وَهُوَ الْعَزِيز فَلَنْ يرام جنابه ... أَنى يرام جناب ذِي السُّلْطَان

وَهُوَ الْعَزِيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شَيْء هَذِه صفتان

وَهُوَ الْعَزِيز بِقُوَّة هِيَ وَصفه ... فالعز حِينَئِذٍ ثَلَاث معَان

وجاء في تاريخ الإسلام [1] عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ جَابِرٍ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: "**مَا نَسِيَ رَبُّكَ- وَمَا كَانَ نَسِيًّا- بَيْتًا قُلْتَهُ**". قَالَ: مَا هُوَ؟ قال: "**أَنْشِدْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ**"، فَقَالَ:

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أَنْ سَتَغْلِبُ رَبَّهَا ... وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلَّابِ

---

(١) (ضعيف) رواه البخاري في التاريخ الكبير فقال: قَالَ لِي إِسماعِيل بْنُ أَبي أُوَيس: حدَّثنا مُحَمد بْنُ طَلْحَة بْنِ عَبد الرَّحمَن عَنِ المُنكَدِر بْنِ مُحَمد بْنِ المُنكَدِر، عَنْ أَبيه، عَنْ جَابِر بْنِ عَبد اللهِ. =
= والمنكدر ضعيف، وطلحة صدوق يخطئ، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق المنكدر أيضًا، والخبر أورده صاحب " كنز العمال (١٣ / ٥٨١) ونسبه لابن مندة، وابن عساكر.

السَّخِينة: طعام من دقيق وسمن أو دقيق وتمر أغلظ من الحساء، وكانت قريش تكثر من أكلها، فعيروا بها حتى لقبوا " سخينة ".

قوله: سِتَّةُ أُصولٍ:

الأصول: جمع أصل، وهو ما يبنى عليه غيره، ومن ذلك أصل الجدار وهو أساسه، وأصل الشجرة الذي يتفرع منه الأغصان.

قوله: بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى:

أراد الشيخ أن يبين أنَّه لم يأت بهذه الأصول من قِبل نفسه وإنما أخذها من القرآن والسنة.

قوله: بَيانًا وَاضِحًا لِلعَوامِّ:

أي من شدة وضوحه وبيانه لا يخفى على عوام الناس، فيدركها كل من سمع الخطاب من الناس؛ إذا كان قد توافر فيه عقل الإدراك والتمييز [1]؛ فإنَّ كل من توافر فيه عقل الإدراك والتمييز فإنَّه يستطيع أن يدرك هذه الأصول من كلام الله

---

(١) **العقل نوعان:** عقل الإدراك: وهو مناط التكليف وهو إدراك الأشياء وفهمها؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها.

وعقل الرشد: وهو أن يحسن الإنسان التصرف؛ وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه. اهـ **انظر الشرح الممتع (١٥/ ٤١٥)**

عز وجل؛ ثم إن وفقه الله وألهمه رشده عمل بذلك الذي عقِله وأدركه، ويكون حينها اجتمع فيه عقل الإدراك وعقل الرشد. (١)

ويعتبر السمع مِن أهم وأعظم أدوات التفكير وتحصيل العلوم والتي مَن أحسن الاستماع بها قادته إلى الرشد، ولهذا ذُكر في القرآن وحدَه مع العقل للدلالة على العَلاقة الوثيقة بينه وبين العقل، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠].

وفي كثيرٍ من آيات القرآن يذكر السمع بمعنى الفهم والتدبر والتعقل، مؤكدًا هذه العَلاقة الوثيقة بين السمع والعقل، فالانتفاع بالعقل إنما يكون بحسن الاستماع.

---

(١) **قال العلامة العثيمين عند قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥١].

العقل نوعان: عقل إدراك، وعقل رشد، فعقل الإدراك ما يدرك به الإنسان الأشياء، وهذا الذي يمر كثيرًا في شروط العبادات، يقول: من شرطها الإسلام والعقل والتمييز، هذا هو عقل الإدراك وضده الجنون.

والثاني عقل رشد: بحيث يحسن الإنسان التصرف ويكون حكيماً في تصرفه وضد هذا السفه لا الجنون.

فالمراد بالعقل بهذه الآية، المراد عقل الرشد لأنه لم يوجه إلينا الخطاب إلا ونحن نعقل عقل إدراك، لكن هل كل من وجه إليه الخطاب، يعقل عقل رشد؟ لا قد لا يعقل عقل الرشد، الكفار كلهم غير عقلاء عقل رشد كما قال الله تعالى في وصفهم: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧١]. لكن ليس معناه ليس عندهم عقل إدراك بل قد يكون عندهم عقل إدراك قوي وذكاء مفرط لكن ليس عندهم عقل رشد. اهـ

قال ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤٧٨): فَالسَّمَاعُ رَسُولُ الْإِيمَانِ إِلَى الْقَلْبِ وَدَاعِيهِ وَمُعْلِمُهُ، وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة السجدة: ٢٦]. فَالسَّمَاعُ أَصْلُ الْعَقْلِ، وَأَسَاسُ الْإِيمَانِ الَّذِي انْبَنَى عَلَيْهِ، وَهُوَ رَائِدُهُ وَجَلِيسُهُ وَوَزِيرُهُ". اهـ

قوله: ثمَّ بَعدَ هَذا غَلِطَ فيها كَثيرٌ مِن أَذكِياءِ الْعَالَمِ:

أي: فطناؤه من أصحاب الفهم الذين لا تخفى عليهم الأمور.

فالذكاء: هو حِدةٌ في الفهم التي يدرك بها الإنسانُ الغامضَ من الأمور، ولا صلة بين الذكاء والإيمان، إنما الصلة بين الزكاء والإيمان؛ لأن الزكاء في القلب، والذكاء في الفهم، فقد يكون الإنسان ذكيًا كافرًا، لكنَّه لا يمكن أن يكون زكيًّا إلا إذا كان مؤمنًا بالله ورسوله.

قوله: وَعُقَلاءِ بَني آدَمَ:

وهذا دليل واضح على أنَّ العقل لوحده ليس كافيًا لإدراك العلوم والمعارف، ويستحيل أن يستقل عقل الإنسان بمعرفة المصالح والمفاسد من غير نقلٍ من الشريعة.

ولو كان كذلك لما غلط هؤلاء العقلاء في فهم هذه الأصول، حتى ضلَّ فيها أكثر الخلق إلا من هداه الله ووفقه.

قوله: إِلا أَقَلَّ الْقَلِيلِ:

والمعنى أن هذه الأصول الستة غلط فيها وفي فهمها والعمل بها كثير من بني آدم إلا أقل القليل الذين لم يغلطوا فيها، وهم الذين منَّ الله عليهم بفهمها والعمل بها على ما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ وأمرهم به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سورة سبأ: ١٣].

والأصل في الناس الضلال إلا من هداه الله سبحانه، لقول الله في الحديث القدسي: "**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**". رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

وفي هذا بيانٌ واضحٌ ودلالةٌ عظيمةٌ على أنَّ العبد لا يستغني عن ربه طرفة عين، وأنَّه محتاج لربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في كل نفس من أنفاسه، وفي كل لحظات حياته.

وفي سنن أبي داود عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: "**دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**" (١)

فقوله: (فَلاَ تَكِلْنِي): أَيْ: لَا تَتْرُكْنِي **(إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)**: أَيْ: لَحْظَةً وَلَمْحَةً، فَإِنَّهَا أَعْدَى لِي مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِي وَإِنَّهَا عَاجِزَةٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِي.

قَالَ الطِّيبِيُّ: الْفَاءُ فِي **(فَلاَ تَكِلْنِي)** مُرَتَّبٌ عَلَى قَوْلِهِ: **رَحْمَتَكَ أَرْجُو**. فَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِيُفِيدَ الِاخْتِصَاصَ، وَالرَّحْمَةُ عَامَّةٌ، فَيَلْزَمُ تَفْوِيضُ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ كَأَنَّهُ قِيلَ: فَإِذَا

(١) (حسن) حسنه العلامة الألباني في «تمام المنة» (٢٣٢)

فَوَّضْتَ أَمْرِي إِلَيْكَ فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، لِأَنِّي لَا أَدْرِي مَا صَلاَحُ أَمْرِي وَمَا فَسَادُهُ، وَرُبَّمَا زَاوَلْتُ أَمْرًا وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ صَلاَحَ أَمْرِي، فَانْقَلَبَ فَسَادًا، وَبِالْعَكْسِ. (١)

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٦٩٧)

الأَصْلُ الأَوَّلُ

إِخْلاصُ الدِّينِ للهِ تَعالى وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وَبَيانُ ضِدِّهِ الَّذي هُو الشِّركُ بِاللهِ، وَكَوْنُ أَكْثَرِ الْقُرْآنِ لِبَيانِ هَذا الأَصْلِ مِنْ وُجوهٍ شَتَّى بِكَلامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ الْعَامَّةِ، ثمَّ لَمَّا صارَ عَلى أَكْثَرِ الأُمَّةِ مَا صارَ؛ أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطانُ الإِخْلاصَ في صُورَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصيرِ في حُقوقِهِمْ، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الشِّرْكَ بِاللهِ في صُورَةِ مَحبَّةِ الصَّالِحِينَ وَاتِّباعِهِمْ.

هذا الأصل هو أعظم أصول الدين على الإطلاق وهو الذي من أجله خلق الله العباد وهو الذي دعا إليه الأنبياء كلهم مع اختلاف شرائعهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة: ٥].

فقوله: إِخْلاصُ الدِّينِ للهِ تَعالى وَحدَهُ لا شَريكَ لَهُ:

الْإِخْلاَص لُغَة: مصدر أخْلص يخلص. ومعناه: تنقية الشَّيْء وتهذيبه، تَقول: أخلصت السَّمن: أَي جعلته خَالِصا.

وَحَقِيقَة الْإِخْلاَص: هُوَ تصفية الْعَمَل لله بالتبري من دونه.

وشرعًا: "أن يقصد المرء بعبادته التقرب إلى الله تعالى والتوصل إلى دار كرامته". العثيمين

ولهذا قال: إخلاص الدين لله وحده لا شريك له:

أي مخلصًا له في جميع العبادات التي يتعبد بها العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيخلِّصها من جميع أنواع الشرك صغيره وكبيرها، كما قال الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: ٢-٣].

أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تُفرِدَ الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

وهذا هو أصل التوحيد.

قوله: وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذي هُو الشِّركُ بِاللهِ

بمعنى أننا إذا أردنا معرفة حقيقة الإخلاص لله وكيف يكون؛ فلابد من تبيين وتوضيح معنى الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، فبضدها تتبين الأشياءُ.

وما دُخِل الإخلاص عند غالب الناس إلا لقلَّةِ معرفتهم بالشرك.

قال عمر رضي الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا ظهر في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

وقد قال حذيفة كما عند البخاري: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**».

وهذا مِن شدة فقهه رضي الله عنه، وقد أحسن من قال:

عَـرَفْـتُ الشّـــرَّ لا لِـلشّـــرِّ لَـكِـــنْ لِـتَـــوَقّـــيـــهِ
وَمَـــنْ لَمْ يَـــعْـــرِفِ الشّـــرَّ مِـــنَ الـنـــاسِ يـــقـــعْ فـيـــهِ

فقوله: وَبَيَانُ ضِدِّهِ الَّذي هُو الشِّركُ بِاللهِ:

الشرك لغة: مأخوذ من الشراكة، يقال شاركت فلانًا أي: صرت شريكه.

واصطلاحًا: هو أن يجعل الإنسان لله ندًا في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته.

وهو نوعان أكبر وأصغر:

فأما حدّ الشرك الأكبر: فهو أن يصرف العبد نوعًا أو فردًا من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنَّه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء.

الشرك الأصغر: كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر، ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركًا، كالحلف بغير الله، فإنَّه مظنة للانحدار إلى الشرك الأكبر". (١)

(١) ومنها تعليق التمائم، ولبس الحلقة، أو الخيط، أو العظم، أو الشعر، أو غير ذلك لرفع البلاء أو دفعه. كل ذلك من الشرك الأصغر المنهي عنه شرعًا؛ لما فيه من تعلق القلب بغيره سبحانه، وذلك إذا اعتقد أنها سبب يؤثر في رفع البلايا، أو جلب المنافع.

قوله: وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل مِنْ وُجوهٍ شَتَّى:

أي أنَّ القرآن كلَّه نزل لبيان التوحيد والإخلاص، وبيان خطر الشرك وعِظَمه.

ليس فقط بالأمر بالتوحيد، أو بالنهي عن الشرك، بل بينه من جميع الوجوه.

فتارة في بيان دعوة المرسلين لأقوامهم بتوحيد الله وبترك الشرك في عبادته وهو كثير في القرآن.

وتارة في بيان التوحيد الذي اختصم فيه الرسل مع أقوامهم وهو توحيد الألوهية.

وتارة في تقرير الخلق بتوحيد الربوبية وإلزامهم بتوحيد الألوهية الذي هو أصل دعوة الأنبياء والمرسلين.

وتارة في بيان أهمية الإخلاص وخطر الشرك بالله عز وجل.

وتارة بالإخبار عن أهل التوحيد وصفاتهم وما أعد الله لهم في الجنة، أو عن أهل الشرك وصفاتهم وما أعد الله لهم في النار.

أو في بيان الحلال والحرام وهذا من تمام التوحيد وكماله ألا يعبد الله إلا بما شرع.

وأما إن اعتقد أن هذه الأمور المعلقة تدفع الشر وتجلب الخير بذاتها وقدرتها المستقلة فهذا شرك أكبر مخرج عن دين الإسلام. وانظر: القول السديد للعلامة السعدي، (صـ٣١، ٣٢)، فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٧٤٨). القول المفيد على كتاب التوحيد (٢٠٧/١).

وغير ذلك مما تجده في كتاب الله عز وجل من بيان هذا الأصل العظيم بشتى أنواع البيان وأوضح الكلام بما لا يدع لأحدٍ من الناس عذرًا في كونه ما فهم هذه الحجج.

وكما أوضح الله ذلك في كتابه، فقد أوضحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله وفعله؛ فقد جاء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحقيق التوحيد وإخلاصه وتخليصه من كل شائبة، وسد كل طريق يمكن أن يوصل إلى ثلم هذا التوحيد أو إضعافه.

وقد جاء عند النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلاً، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " **أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ** "

فأنكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا الرجل أن يقرن مشيئته بمشيئة الله تعالى بحرف يقتضي التسوية بينهما، وجعل ذلك من اتخاذ الند لله عز وجل.

قوله: بِكَلامٍ يَفْهَمُهُ أَبْلَدُ الْعَامَّةِ

أي أنَّه من شدة وضوحه وبيانه وكثرة الكلام في هذا الأصل تارة بالإخبار وتارة بعرض القصص القرآني وتارة في دعوة الأنبياء لرسلهم، وبغير ذلك صار هذا الوضوح لا يخفى على أبلد عامي.

وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتابة فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فلا يحتاج إلى شدة فهم، ولا إلى قوة بلاغة، ولا إلى عظيم إدراك حتى يصل إلى فهم هذه المعاني، بل هي ظاهرة لكل أحد.

وذلك كلُّه حجة على من يشرك في عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يتعلل بعدم الفهم.

قوله: ثمَّ لَمَّا صارَ عَلى أَكْثَرِ الأُمَّةِ مَا صارَ:

أي مِن جهلهم بتوحيد رب العالمين، وما يقود إليه، وجهلهم بخطر الشرك وما يوقع فيه، ولعدم بصيرتهم في دين الله، اختلَّت موازينهم، فدخل عليهم الشيطان المداخل.

قوله: أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطانُ الإِخْلاصَ في صُورَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِينَ وَالتَّقْصيرِ في حُقوقِهِمْ:

وهذا من قبيل تلبيس الشيطان عليهم.

فلما أراد أن ينفرهم عن دعوة التوحيد وأهل التوحيد والدعاة إليه قذف في قلوبهم: أنَّ هؤلاء بأفعالهم وأقوالهم إنما يدعون إلى تنقص الصالحين والوقيعة فيهم، ولا يعظمونهم ولا يقدرونهم حق قدرهم.

وانظر إلى ما ذكره الألوسي رحمه الله حيث قال:

الأمر الرابع من الأمور التي يجب التنبيه عليها: أن من مكايد الغلاة التي كادوا بها العوام أنهم يقولون: إن الاستغاثة بالأموات، ونداءهم في المهمات، وشد الرحال لزيارة قبورهم، وتقديم قرابينهم إليها ونذورهم؛ هو من علامات

محبتهم، والتقرب بقربتهم، ومن أنكر ذلك وأبى ما هنالك، ونهى عن زخرفتها وإيقاد السُّرُج عليها، وبناء المساجد عليها، وقصد أهلها في طلب الحاجات، والالتجاء إليها في المهمات؛ فهو من المبغضين للصالحين، والمنكرين لكرامات الأولياء والصدّيقين! إلى غير ذلك من أقوالهم المناسبة لضلالهم، كبُرت كلمة تخرج من أفواههم. فإن من أنكر مثل تلك البدع والضلالات هم المحبون لهم، والمحافظون على هديهم وطريقتهم، وأما هؤلاء الغلاة وأعداء الهداة، فقد أفسدوا الدين، وسدّوا طريق الموحّدين، يعرف ذلك من وقف على أحوالهم، وما قالوه في الإسلام وما بدّلوه من الدين. وما عليه أهل البوادي اليوم والأعراب من الكفر بآيات الله ورد أحكام القرآن والاستهزاء بذلك، والرجوع إلى سوالف البادية، وما كانت عليه من العادات والأحكام الجاهلية، وأمثلهم حالًا من عرف أن كتاب الله وأحاديث رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل البلاد فلم يرفع بذلك رأسًا، ولم يبال بشيء مما هنالك أو هو جاهل بما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، لا شعور له بشيء من ذلك، ولا يدري ما الناس من أمر دينهم.

وغالب أهل المدن منهمكون في اللذائذ والشهوات، وقد أعرضوا عن الشريعة وما ورد فيها من الأوامر والنواهي، ولم يلتفتوا إلى ما في كتب الفقه من الأحكام، وظنوا أنَّ سيئاتهم تُغفر بنذورهم إلى القبور ونداء أهلها والاستغاثة بهم، وأنَّ من منعهم من دعاء الأنبياء والصالحين، والاستعانة بهم، والاستغاثة في الشدائد والمهمات وأنهم لا يدعون مع الله في الحاجات والملمات ولا يذبح لهم

تقربًا، ولا يطاف بقبورهم ولا يتوكل عليهم؛ فقد استخف بهم وتنقصهم وهضمهم حقهم. اهـ (١)

قوله: وَأَظْهَرَ لَهُمُ الشِّرْكَ بِاللهِ فِي صُورَةِ مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَاتِّبَاعِهِمْ:

أي أنَّ الشيطان زين لهم الشرك، وقذف في قلوبهم أنَّ هذا ليس شركًا، إنما هذا من إجلال الصالحين ومن تعظيمهم، كما ذكر الألوسي في كلامه المتقدم.

ومِن هذا الباب غلا كثير في الصالحين فعبدوهم من دون الله سبحانه وصرفوا لهم العبادات، حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا لبعض هؤلاء الذين يزعمون أنهم صالحون -وهم من أفجر الخلق- جعلوا لهم تصرفًا في الأكوان وما هو من خصائص ربوبية الله سبحانه وتعالى.

وإن أردت أعجب من ذلك؛ فاعجب أنَّك إذا ذكرت الله وحده عند عبَّاد القبور **وقلتَ**: ادعوه وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تلتفتوا إلى سواه، اشمأزت قلوبهم، وغضبوا غضبًا شديدًا، وعدَّوا ذلك تنقصًا لأوليائهم الذين لم تثبت ولايتهم ولا بنصف دليل، ولا شبه خبر صحيح، وقالوا: ينكر الكرامات، في حين أنهم بدعاء غير الله ينتقصون ربهم، وبالتفاتهم عنه سبحانه يقعون في عارٍ كبير وظلمٍ عظيم لو فطنوا. (٢)

---

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني (١/ ٥٤).

(٢) انظر دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: ١٥٤).

الأَصْلُ الثَّاني

أَمَرَ اللهُ بِالاجْتِماعِ في الدِّينِ، وَنَهَى عَن التَّفَرُّقِ فيهِ؛ فَبَيَّنَ اللهُ هَذا بَيانًا شافِيًا تَفْهَمُهُ الْعَوامُّ، وَنَهانا أَنْ نكونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنا فَهَلَكُوا، وَذَكَرَ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُسْلِمينَ بِالاجْتِماعِ في الدِّينِ، وَنَهاهُمْ عَن التَّفَرُّقِ فيهِ، وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجابِ في ذَلكِ، ثُمَّ صارَ الأَمْرُ إلى الافْتِراقِ في أُصولِ الدِّينِ وَفُروعِهِ هُوَ الْعِلْمَ وَالفِقْهَ في الدِّينِ، وَصارَ الاجْتِماعُ في الدِّينِ؛ لا يَقولُهُ إِلا زِنْديقٌ أَوْ مَجنونٌ!

هذا الأصل مِن أعظم ما أُمرنا به وهو لزوم الجماعة وعدم التفرق، ولا يكون ذلك إلا بالاجتماع على ما كان أصلاً ثابتًا لا يتغير وهما الكتاب والسنة.

قوله: أَمَرَ اللهُ بِالاجْتِماعِ في الدِّينِ، وَنَهَى عَن التَّفَرُّقِ فيهِ:

ومِن أعظم الآيات الدالات على الحث على لزوم الجماعة ونبذ الفرقة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

قال ابن جرير (٧/ ٧٠):

"يريد بذلك تعالى ذكره: وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عَهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله". اهـ

قال الحافظ ابن كثير (٢/ ٨٩):

"قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أمَرَهُم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديثُ المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "**إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ: أَنْ تَعْبدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**". اهـ

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الشورى: ١٣].

قال العلامة ابن كثير (٧/ ١٩٥):

" أي: وصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف". اهـ

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣].

قال العلامة السعدي (ص: ٢٨٠):

"﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ أي: تضلكم عنه وتفرقكم يمينا وشمالا، فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم، ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علما وعملا صرتم من المتقين، وعباد الله المفلحين، ووحَّد الصراط وأضافه إليه لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه". اهـ

قوله: فَبَيَّنَ اللهُ هَذا بَيانًا شافِيًا تَفْهَمُهُ الْعَوامُّ:

فهل يخفى على أحدٍ من الناس فهم قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٠٥].

وكذا ما سبق من الآيات، إلا أنَّ كثيرًا من الناس تتجارى بهم الأهواء؛ فتعامت قلوبهم عن فهم مثل هذه الآيات، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله: تَفْهَمُهُ الْعَوامُّ:

العوام: المقصود بهم عامَّة الناس.

قال صاحب المصباح (٢/ ٤٣٠):

الْعَامَّةُ خِلاَفُ الْخَاصَّةِ وَالْجَمْعُ عَوَامُّ مِثْلُ دَابَّةٍ وَدَوَابَّ وَالنِّسْبَةُ إلَى الْعَامَّةِ عَامِّيٌّ. اهـ

قال العلامة الجامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

المقصود بالعوام هم الذين سلمت فطرهم من التشويش ومن التهييج يعيشون بعيدًا من الانتماءات والجماعات يفهمون فهمًا واضحًا لا لبس فيه. اهـ[1]

دلَّ هذا على أنَّ الذي ينتفع بهذا الكلام ويفهمه فهمًا صحيحًا هم العوام الذين سلمت فطرهم من التشويش ومن التهييج الذي هم بعيدون عن الانتماءات الحزبية والجماعات المخالفة لدين الله؛ فهؤلاء يفهمون فهمًا واضحًا لا لبس فيه.

وأمَّا من انغمس في الحزبية المقيتة وتعلَّق بها فهذا قد ضعُفت مداركه، وقلَّ فهمه للنصوص الواضحة، بل قد تراه يفهم نصوص الكتاب والسنة على ما يوافق هواه وعلى ما يمليه عليه قادة حزبه وجماعته، فمثل هؤلاء قد مُسخت فطرهم حتى عميت عن فهم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فهمًا صحيحًا، وكم ترى من كثرة هذا الصنف لا كثَّرهم الله.

---

(١) الأمالي الجامية على الأصول الستة (ص: ٨).

وصدق الشيخ مقبل الذي كان يقول:

الحزبية مساخة فقد مسخت بعض حفظة القرآن وأصبح من أصحاب الأناشيد، أو من أصحاب التمثيليات، أوامر تأتي، ومسخت بعض من كان مؤهلاً للتأليف وأصبح مسكين يركض من ههنا إلى ههنا من أجل أن يدعو إلى فكرته. اهـ (١)

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكم مسخت من طلاب العلم؛ فبعد أن كان خطيبًا مفوَّهًا أو مؤلفًا بارعًا صار إلى اللهث وراء الدنيا، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل.

فإن كان هذا في طالب العلم الذي قد عرف الحق وأهله، وكان ينافح عنه فترة من الزمن؛ فكيف بمن كان عاميًّا لا يفقه كثيرًا من الأمور، ثم مِن أول أمره سقط في أوحال الحزبية، فمثل هذا قلَّ أن يفهم نصوص الكتاب والسنة إلا أن يشاء الله سبحانه هدايته.

ومن لطف الله بعبده وإرادته به الخير أن يوفق لصحبة أهل السنة والجماعة مِن أول وهلة، فعوام الناس إلى من سبق إليهم.

وقد روي عن أيوب السختياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال:

إنَّ من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفِّقْهما الله لعالم من أهل السنة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) من شريط: (أسئلة أهل السنة بأذربيجان).

إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجُه، وإذا رأيته مع أصحاب البدع فايأس منه، فإنَّ الشاب على أول نشوئه.

وقال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن ذلك إذا نشأ بين أبوين صالحين وأقارب أتقياء أو في بلد صلاح أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم أو لتربية العلماء الربانيين فإنَّ هذا من أعظم لطفه بعبده فإنَّ صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة منها بل من أكثرها وأعظمها نفعاً هذه الحالة.

ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإنَّ هذا لطف له وكذلك إذا قدر الله أن يكون مشايخه الذين يستفيد منهم الأحياء منهم والأموات أهل سنة وتقي فإنَّ هذا من اللطف الرباني ولا يخفى لطف الباري في وجود شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أثناء قرون هذه الأمة وتبيين الله به وبتلامذته من الخير الكثير والعلم الغزير وجهاد أهل البدع والتعطيل والكفر ثم انتشار كتبه في هذه الأوقات فلا شك أنَّ هذا من لطف الله لمن انتفع بها وأنه يتوقف خير كثير على وجودها فلله الحمد والمنة والفضل. اهـ[1]

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ٢٢٩)

قوله: وَنَهانا أَنْ نكونَ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَنا فَهَلَكُوا:

كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٠٥].

فهذه الآية جاءت بعد الأمر بالاجتماع والاعتصام في قوله سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٠٣].

فبعد أن أمر ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الأمة بالاجتماع الذي يكون بالاعتصام بحبله المتين، وذكرهم بنعمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم إذ ألَّف بين قوبهم وجمع كلمتهم ووحَّد صفهم، ثم ذكَّرهم في الآية المذكورة بسبب هلاك الأمم السابقة من اليهود والنصارى وهو التفرق الذي أدى بهم إلى الاختلاف الذي قادهم بعد ذلك إلى التناحر والتقاتل والهلاك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

قال الطبري في تفسيره (٥/ ٦٦٢):

يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثناؤُهُ : وَلاَ تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ آمَنُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاخْتَلَفُوا فِي دِينِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ ، فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَعَلِمُوا الْحَقَّ فِيهِ ، فَتَعَمَّدُوا خِلاَفَهُ ، وَخَالَفُوا أَمْرَ

اللَّهِ ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ ، جَزَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ : يَعْنِي وَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا ، وَاخْتَلَفُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ عَذَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَظِيمٌ.

يَقُولُ جَلَّ ثناؤُهُ : فَلا تَفَرَّقُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي دِينِكُمْ تَفَرُّقَ هَؤُلاَءِ فِي دِينِهِمْ ، وَلاَ تَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ ، وَتَسْتَنُّوا فِي دِينِكُمْ بِسُنَّتِهِمْ ، فَيَكُونَ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْعَظِيمِ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ. اهـ

ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [سورة الأنعام: ١٥٣]".

قال العلامة ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦٥):

عن ابن عباس قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ونحو هذا في القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله. ونحو هذا. قاله مجاهد، وغير واحد. اهـ

قوله: وَذَكَرَ أَنَّهُ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالاجْتِمَاعِ فِي الدِّينِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ فِيهِ:

هذا توضيح وبيان لمفهوم الجماعة، فإنَّ الجماعة هم من اجتمعوا على الدين الحق ولو كانوا قلة، ولا عبرة بما قد يتوهَّمه البعض مِن أنَّ الكثرة دليلٌ على أنَّهم الجماعة.

فلا يقصد بالجماعة هنا مجموع الناس وعامتهم، ولا أغلبهم، ولا سوادهم، ما لم يجتمعوا على الحق؛ لأنَّ الجماعة هي التمسك بالكتاب والسنة، ولو كنت وحدك.

وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣].

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "**أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، أَيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ**". ثَلاَثَ مِرَارٍ. (١)

قال أبو شامة:

"وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلا، والمخالف كثيرا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم، ولا تنظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم". اهـ(٢)

فافهم هذا حتى لا تخطيءَ طريق الحق بسبب الاغترار بالكثرة، فكم رأينا ممن حصل له ذلك فاستوحش مِن قلة السالكين للصراط المستقيم، واغتر بكثرة المخالفين فأصيبت مقاتله.

---

(١) (حسن لغيره) رواه أحمد عن رجل من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.
(٢) "الحوادث والبدع"(ص٢٢).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٦].

وانظر بعين البصيرة إلى هذا الكلام الذي سنسوقه لابن القيم، وما ذكره من قصة عمرو ابن ميمون مع الفقيه عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ وَالْحُجَّةَ وَالسَّوَادَ الْأَعْظَمَ هُوَ الْعَالِمُ صَاحِبُ الْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيُّ: صَحِبْت مُعَاذًا بِالْيَمَنِ، فَمَا فَارَقْته حَتَّى وَارَيْته فِي التُّرَابِ بِالشَّامِ، ثُمَّ صَحِبْت مِنْ بَعْدِهِ أَفْقَهَ النَّاسِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَسَمِعْته يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ سَمِعْته يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ وَهُوَ يَقُولُ: سَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ وُلَاةٌ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ مَوَاقِيتِهَا، فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِمِيقَاتِهَا؛ فَهِيَ الْفَرِيضَةُ، وَصَلُّوا مَعَهُمْ فَإِنَّهَا لَكُمْ نَافِلَةٌ، قَالَ: قُلْت يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ مَا أَدْرِي مَا تُحَدِّثُونَ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْت: تَأْمُرُنِي بِالْجَمَاعَةِ وَتَحُضُّنِي عَلَيْهَا ثُمَّ تَقُولُ لِي: صَلِّ الصَّلَاةَ وَحْدَك وَهِيَ الْفَرِيضَةُ، وَصَلِّ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَهِيَ نَافِلَةٌ قَالَ: يَا عَمْرُو بْنَ مَيْمُونٍ قَدْ كُنْت أَظُنُّك مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، أَتَدْرِي مَا الْجَمَاعَةُ؟ قُلْت: لَا، قَالَ: إنَّ جُمْهُورَ الْجَمَاعَةِ هُمْ الَّذِينَ فَارَقُوا الْجَمَاعَةَ، الْجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الْحَقَّ وَإِنْ كُنْت وَحْدَك، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: فَضَرَبَ عَلَى فَخِذِي وَقَالَ: وَيْحَك، إنَّ جُمْهُورَ النَّاسِ فَارَقُوا الْجَمَاعَةَ، وَإِنَّ الْجَمَاعَةَ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ: إِذَا فَسَدَتْ الْجَمَاعَةُ فَعَلَيْك بِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ قَبْلَ أَنْ تَفْسُدَ، وَإِنْ كُنْت وَحْدَك، فَإِنَّك أَنْتَ الْجَمَاعَةُ حِينَئِذٍ، ذَكَرَهَا الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ، وَقَدْ شَذَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ زَمَنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إلَّا نَفَرًا يَسِيرًا؛ فَكَانُوا هُمْ الْجَمَاعَةُ، وَكَانَتْ الْقُضَاةُ حِينَئِذٍ وَالْمُفْتُونَ وَالْخَلِيفَةُ وَأَتْبَاعُهُ كُلُّهُمْ هُمْ الشَّاذُّونَ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ الْجَمَاعَةُ، وَلَمَّا لَمْ يَتَحَمَّلْ هَذَا عُقُولُ النَّاسِ قَالُوا لِلْخَلِيفَةِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَكُونُ أَنْتَ وَقُضَاتُك وَوُلَاتُك وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُفْتُونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ عَلَى الْحَقِّ؟ فَلَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُهُ لِذَلِكَ؛ فَأَخَذَهُ بِالسِّيَاطِ وَالْعُقُوبَةِ بَعْدَ الْحَبْسِ الطَّوِيلِ؛ فَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ، وَهِيَ السَّبِيلُ الْمَهْيَعُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ حَتَّى يَلْقَوْا رَبَّهُمْ، مَضَى عَلَيْهَا سَلَفُهُمْ، وَيَنْتَظِرُهَا خَلَفُهُمْ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٢٣]. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.. اهـ[1]

وهذا كلام في غاية الوضوح لمن أراد الله به خيرًا ففهَّمه إياه؛ فوعاه وشدَّ عليه يده.

فعلى هذا فلا يكون الاجتماع أبدًا إلا على السُّنة، ولهذا لا تذكر السنة إلا وذكرت معها الجماعة.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٣٠٨)

قال شيخ الإسلام في الاستقامة (١/ ٤٢):

والبدعة مقرونة بالفرقة كَمَا أَنَّ السُّنَّة مقرونة بِالْجَمَاعَة فَيُقَال أهل السّنة وَالْجَمَاعَة كَمَا يُقَال أهل الْبِدْعَة والفرقة. اهـ[١]

قوله: وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الْعَجَبِ الْعُجابِ فِي ذَلِكِ:

ومن ذلك ما رواه ابن ماجة عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: "**الْجَمَاعَةُ**".

وفي الإبانة الكبرى لابن بطة عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً مَا أَنَا عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**".

ففي حديث عوف بيَّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الذين ينجون من الفرقة والاختلاف هم الجماعة، وفي حديث بن عمرو جلَّى ذلك ووضحه فبين من هم الجماعة الذين قصدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "**مَا أَنَا عَلَيْهَا الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**".

فتبيَّن من ذلك أنَّ من أراد الجماعة فعليه بالتمسك بالسنة التي كان عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) وفهم هذا الكلام مهمٌ جدًا، انظر لبسطه في بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام (٢/ ٣١٠).

ولهذا قال الإمام الزُّهْرِيِّ قَالَ: "**كَانَ مَنْ مَضَى مِنْ عُلَمَائِنَا يَقُولُونَ: الِاعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ نَجَاةٌ**". رواه الدارمي في سننه في كتاب العلم باب اتباع السنة.

عن ابن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس، فذكرت السنة، فقال مالك: "**السنة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق**". أورده الهروي في ذمِّ الكلام وأهله.

قوله: ثُمَّ صارَ الأَمْرُ إلى أنَّ الافْتِراقِ في أُصولِ الدِّينِ وَفُروعِهِ هُوَ الْعِلْمَ وَالفِقْهَ في الدِّينِ:

أولًا: قوله في أصول الدين وفروعه:

هذا التقسيم له حالان:

الأول: أن يُقال إنَّ الأصول هي الأمور الأساسية التي لا يقوم الدين إلا بها، وهي ركن من أركان الدين، وأنَّ الفروع ما يكون صفة في هذه الأصول فهذا التقسيم لا حرج فيه.

الثاني: إن قصد بهذا التقسيم أنَّ الأصول ما يتعلق بالأمور العلمية العقدية والفروع ما يتعلق بالأمور العملية فهذا مردود، وهذا هو التقسيم الذي أنكره العلماء كشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم. (١)

(١) **قال العلامة العثيمين**: مع أنَّ كلمة أصول الدين وفروعه يمكن أن تكون مقبولة، لكن لا على أساس أنَّ الأصول هي العلمية والفروع هي العملية، بل نقول إنَّ الأصول ما لا يقوم الدين إلا به،

ثانيًا قوله: ثُمَّ صارَ الأَمْرُ إلى أنَّ الافْتِراقِ في أُصولِ الدِّينِ وَفُروعِهِ هُوَ الْعِلْمَ وَالفِقْهَ في الدِّينِ:

وهذا واضح لكل ذي عينين فقد أصبح الناس يدعون إلى فرقٍ وجماعات وأحزاب وجمعيات فتفرقوا شذر مذر، وكلٌ يدعو إلى حزبه وجماعته، وكلهم يدعي أنَّ كلَّ الطرق تؤدي إلى المقصود، وبعضهم يقول المهم أننا متفقون بالأصول ولا عبرة بالاختلاف في الفروع [1]، ويقسمون الدين إلى لبٍّ وقشور، وجعلوا كلَّ ما يقعون فيه من المخالفات من القشور التي يسوغ تركها -كما يزعمون-.

وهذا من تزيين الشيطان وأحد مساوئ بدعة تقسيم الدين إلى أصول وفروع، على ما تقدم تفصيله.

وهذا الاختلاف ليس بعجيب إذ أنَّها سنَّةُ الله في خلقه، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [سورة هود: ١١٨-١١٩].

والفروع ما يكون صفة في هذه الأصول، أما الأصول التي تكون أركانا في هذا الدين فإننا نجعلها من الأصول ولو كانت من العمليات. من شرح الفتوى الحموية.

(١) ويعنون بالأصول أمور الاعتقاد والتي يقال لها العلميات، وبالفروع أمور الفقه والتي يقال لها العمليات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها، ثم بنوا على هذا الضابط الأحكام المخالفة.

ولكنَّ العجيب هو ما أخبر عنه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أن تنعكس المفاهيم فيصير مَن دعا إلى التحزب والتفرق والتشرذم هو صاحب الفقه والدين والعلم، ويُرفع منزلة عالية، ومن يدعو إلى الاجتماع واتباع الكتاب والسنة ومنهج السلف يرمى بالتشدد والتخلف والرجعية والعمالة وغير ذلك من الألقاب، بل قد يصل بهم الأمر إلى أن يتهموه بالنفاق، وهذا شيء ليس فيه مبالغة فالناس يختلفون في أحكامهم على أهل السنة والجماعة، كلٌ بحسب ما وصل إليه نظره في الاغترار بما عليه الغرب والانبهار بما وصلوا إليه من الصناعات ومدى التأثر بهم.

فلا غرو إذًا أن يقول الشيخ:

وَصارَ الاجْتِماعُ في الدِّينِ؛ لا يَقولُهُ إلا زِنْديقٌ أَوْ مَجنونٌ!:

الزِّنْدِيقُ: هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ وَيُخْفِي الْكُفْرَ، وَيُسَمَّى مُنَافِقًا فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ.

والمجنون: هو فاقد العقل.

والمعنى: أنَّ من يأمر الناس بالاعتصام بالكتاب والسنة ونبذ الأقوال المخالفة لهما يصفونه بالزندقة، أو بأنَّه لا يدرك الأشياء ولا يفهمها على حقيقتها فحاله كالمجنون.

ولا عجب في ذلك؛ إذ أنَّ الذي يأمر الناس بالتمسك بالكتاب والسنة فإنما يأمرهم بلزوم طريق المرسلين، والمتأمل في سيرة أنبياء الله يجد أنَّ المشركين قد وصفوا أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بأوصاف تدلُّ على عظيم جهلهم.

فقد وصفوا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه مجنون، وأنَّه ساحر، وأنَّه كاهن، وأنَّه شاعر، وأنَّه معلَّم، وأنَّه مفترٍ، وأنَّه كاذب، وغير هذه الأوصاف.

فإن كانت هذه الأوصاف يوصف بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو المؤيَّد بالوحي والمعجزات، فلا عجب أن يوصف بها من دونه ممن يدعو إلى اتباع سبيله وطريقه.

فقد قال ابن أبي دؤاد عن الإمام أحمد بن حنبل إنَّه كافر، وكان يقول للمعتصم: والله إنَّه كافر؛ اقتله ودمه في رقبتي؛ وما ذاك إلا لتمسك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بما جاء في الكتاب والسنة ودعوته الناس إليهما.

ورمى أهل الأهواء والبدع شيخ الإسلام بن تيمية بالزندقة والكفر وأنَّه عدوٌ لله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ذاك إلا لتمسكه بما جاء في الكتاب والسنة ودعوته الناس إليهما.

وقيل نحو ذلك على الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما ذاك إلا لتمسكه بما جاء في الكتاب والسنة ودعوته الناس إليهما.

وهكذا فعلوا مع الشيخ مقبل، ومِن بعده شيخنا يحيى بن علي الحجوري فقد رُمي بأبشع الصفات فقالوا إنَّه يطعن في دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويطعن في صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّه قال: كم من طلاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المنافقين، وأن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كفروا بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حتى وصل بهم الحال إلى أن عملوا قناة يجمعون بها يسمونه ضلالات الحجوري، وما ذاك إلا لتمسكه بما جاء في الكتاب والسنة ودعوة الناس إليهما، وهو عالم من علماء المسلمين لا ندعي له العصمة، إلا أنَّ القوم بُهتٌ.

فقاتل الله التعصب الأعمى كيف يفعل بصاحبه.

الأَصْلُ الثَّالِثُ

أَنَّ مِنْ تَمامِ الاجْتِماعِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِمَنْ تَأَمَّرَ عَلَيْنا -وَلَوْ كانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا-؛ فَبَيَّنَ اللهُ هَذا بَيانًا شافِيًا كافِيًا بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْواعِ الْبَيانِ شَرْعًا وَقَدَرًا، ثُمَّ صارَ هَذا الأَصْلُ لا يُعْرَفُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، فَكَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟!

قوله: أَنَّ مِنْ تَمامِ الاجْتِماعِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ:

السمع: هو القبول، **والطاعة**: هي الانقياد والامتثال، وهما مقرونان في كثيرٍ من المواضع، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

وأهل الاختلاف لا يقولون هذا وإنما يقولون سمعنا وعصينا كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن اليهود مقولتهم هذه.

فمن سَمِعَ سماع انتفاعٍ وقبولٍ؛ امتثل وأطاع، وليس المقصود بالسمع مجرد السماع فقد قال الله عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الملك: ١٠].

فقوله ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾: أي سمع من يعي ويفهم.

والمعنى: أنَّ هذا الأصل -وهو السمع والطاعة لولاة الأمر- من الأصول العظيمة التي اجتمع عليها أهل السنة والجماعة.

والعمل بهذا الأصل العظيم مما يتمم الاجتماع ويزيده قوة، فلا تقوم قائمة المسلمين إلا باجتماعهم على إمام، وإلا فتضعف شوكتهم وتذهب ريحهم، فالتنازع في أمر السلطة يؤدي إلى الفشل وذهاب القوة، كما قال الله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

ومن طاعة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ طاعة ولاة الأمور في غير معصية الله تعالى.

دلَّ على ذلك الكتاب والسنَّة والإجماع.

فمن الكتاب قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

ومن السنة: ما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "**بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة، في مَنْشَطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأَثَرَةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: "إلا أن تروا كفرا بَوَاحا، عندكم فيه من الله برهان**"

وعن أنس: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "**اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**". رواه البخاري

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "**أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيًا مُجَدَّع الأطراف**". رواه مسلم، وغيرها من الأحاديث المتكاثرة.

ونقل الإجماع على ذلك ابن بطة والنووي وابن المنذر وأبو الحسن الأشعري وابن القطان وغيرهم.

قَالَ ابْنُ بَطَّة رَحِمَه الله: "وقَدْ أَجْمَعَت العُلماءُ مِن أَهْلِ الفِقْهِ والعِلْم والنُّسَّاك والعُبَّاد والزُّهَّاد مِن أوَّل هَذِهِ الأُمَّةِ إلى وَقْتِنَا هَذا: أنَّ صلاةَ الجمُعَة وَالعِيدَيْنِ ومِنَى وعَرَفَات وَالغَزْو مَع كلِّ أَميرٍ بَرٍ وفَاجِرٍ... والسَّمْع والطَّاعَة لِمن وَلُّوه وَإنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًا إلا فِي مَعْصِيةِ الله تَعَالى، فَلَيْسَ لمخْلُوقٍ فِيهَا طَاعَة". (١)

قَالَ ابْنُ القَطَّان: "وَأَجْمَعُوا أَنَّ السَّمْعَ والطَّاعَةَ وَاجِبَة لِأَئِمَّة المسْلِمِين، وَأَجْمَعُوا عَلَى أنَّ كُلَّ مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِن أُمُورِهِم عَن رِضَا أَوْ غَلَبَةٍ وَاشْتَدَّتْ وَطْأَتُهُ مِنْ بَرّ وَفَاجِرٍ لاَ يَلْزَمهُم الخُرُوجُ عَلَيْهِم بِالسَّيْفِ، جَارُوا أَوْ عَدلُوا". (٢)

قوله: لمن تأمر علينا: أي: لمن ولي أمرنا، وصار أميرًا علينا أو ملكًا أو رئيسًا.

قوله: وَلَوْ كانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا:

لما ثبت في البخاري وغيره عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**"

- والوقوف على هذا الحديث يتطلب فهم أمورٍ وهي:

الأول: أنَّ الإجماع قائم على أنَّه لا يجوز أن يكون العبد إمامًا.

---

(١) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة (ص: ٢٦٠).

(٢) الإقناع في مسائل الإجماع (١/ ٦٠).

قال المهلب: أجمعت الأمة على أنه لا يجوز أن تكون الإمامة في العبيد. اهـ[1]

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يُرِيدُ بِهِ طَاعَةَ مَنْ وَلَّاهُ الإمام عليكم وإن كان عبدا حبشيًّا وَلَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْإِمَامُ عَبْدًا حَبَشِيًّا وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ الْأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ وَقَدْ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي الشَّيْءِ بِمَا لَا يَكَادُ يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ. اهـ[2]

الثاني: أنَّ المقصود بهذا التوجيه النبوي هو المبالغة في الأمر بالسمع والطاعة ولو فُرِض أن تأمر عليكم عبدٌ وحتى لو كان هذا العبد حبشيا، دميم الخلق والخِلقة، فاسمعوا وأطيعوا.

قال الكرماني: قوله: (**كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**) أي حبة من العنب يابسة سوداء وهذا تمثيل في الحقارة وسماجة الصورة وعدم الاعتداد بها. [3]

الثالث: أنَّ هذه الأخبار الواردة في السمع والطاعة المقصود بها ما لم يكن فيه معصية، وأما إن أمروا بمعصية فلا.

قال ابن بطال: الأخبار الواردة بالسمع والطاعة لهم ما لم يكن خلافًا لأمر الله وأمر رسوله، فإذا كان خلافًا لذلك فغير جائز لأحد أن يطيع أحدًا فى معصية الله ومعصية رسوله، وبنحو ذلك قال عامة السلف. اهـ[4]

---

(١) شرح البخاري لابن بطال (١٥/ ٤٦٣)

(٢) تحفة الأحوذي (٧/ ٣٦٦)

(٣) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٥/ ٧٥)

(٤) شرح البخاري لابن بطال (١٥/ ٤٦٣)

يؤيد ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أُمِّ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"**

قال السندي: في قوله يقودكم بكتاب الله إشارة إلى أنه لا طاعة له فيما يخالف حكم الله تعالى. اهـ (١)

وفي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **"السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ"**.

قال العلامة العباد في شرح سنن أبي داود:

يعني: فيما يحبه وفيما يكرهه ما دام ليس فيه معصية لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان يكره ذلك الشيء الذي أمر به، يعني: أنه يسمع ويطيع ولو كان يكره هذا الذي أمر به، إلا في شيء واحد، وهو أن يكون المأمور به فيه معصية لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعند ذلك لا سمع ولا طاعة. فهو مثل الأحاديث المتقدمة الدالة على أنَّ السمع والطاعة لولاة الأمور مقيدة بأن يكون المأمور به معروفًا، ولا يكون معصية لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ

(١) حاشية السندي على النسائي (٧/ ١٥٤)

الرابع: أنَّ القول بعدم طاعته في معصية الله لا يعني الخروج عليه فإنَّ الخروج شرٌ كما عُلِم على مرِّ الأزمان، يدل على ذلك الأحاديث الكثيرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنها:

حديث عَوفِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: "**وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**". رواه مسلم (١٨٥٥)

وحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**". رواه البخاري (٧٠٥٤) واللفظُ له، ومسلم (١٨٤٩)

وحديث أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**" قَالُوا: أَفَلاَ نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: "**لَا، مَا صَلَّوْا**". رواه مسلم (١٨٥٤).

وفي رواية أبي داود "**فَمَنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**".

قال العلامة العباد:

قوله: "**فَمَنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ**" يعني: وذلك بالطريقة المشروعة التي تترتب عليها مصلحة ولا تترتب عليها مضرة، فلا يكون ذلك الإنكار على المنابر، أو بطريقة التشهير، أو الكلام في المجامع مما يترتب عليه تهييج الغوغاء وحصول الفتن، فإن

هذا ليس من النصح ولا من الصواب... فالمنكر ينكر بالطريقة التي تفيد، لا بالطريقة التي تزيد الطين بلة، وتسبب الفتن والقلاقل وتهيج الغوغاء.. اهـ

قوله: (وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ) أي: فهذا هو الذي يأثم؛ لكونه تابع على المنكر وأقره وحصل منه الرضا بالمنكر، فهذا يأثم ويصير شريكًا للحاكم في الإثم.

الخامس: أنَّ من عقيدة أهل السنة والجماعة عدم جواز الخروج على ولاة الأمر والحكام بالسيف وإن جاروا، ووجوب طاعتهم بالمعروف ما لم يأمروا بمعصية، ومن رأى منهم منكرًا أو ظلمًا فليصبر على جورهم وظلمهم، ويدعو الله تعالى لهم، ويلزم جماعة المسلمين، ولا ينزع يده من طاعتهم أبدًا.

وأنَّ الخروج على الحاكم المسلم مخالف للأمر بالاجتماع.

ولا يجوز الخروج عليه إلا في حالات مضيقة جدًا وبشروط ذكرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ففي الصحيحين من حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: **"أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ"**، قَالَ: **"إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"**

فهذه شروط اجتمعت في جواز الخروج على الحاكم:

١. أن يوجد من هذا الحاكم الكفر.

٢. لا بد أن يكون الكفر ظاهرًا لقوله: **أن تروا**، فلا يكون متأولًا ويكفره به.

٣. أن يظهره ويجهر به، لقوله: **بواحًا**: والبواح الجِهار يقال: باح بالشّيء وأباحه جهر به.

ومعرفة تحقق الكفر البواح لا يكون إلا من خلال أهل العلم الذين يفرقون بين الكفر البواح وغيره، حتى لا يقول في دين الله ﷻ من ليسوا من أهله فتفسد البلاد والعباد.

٤. أن يكون كفره فيه نص من الكتاب أو السنة لا على الهوى، لقوله: "**عندكم من الله فيه برهان**".

قال الحافظ في الفتح (٨/١٣): أي: نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل. اهـ

٥. أن يكون الدليل قاطعًا على أنَّ هذا كفر مجمع عليه لا يختلف فيه لقوله: **فيه برهان**، والبرهان الواضح الذي لا خفاء فيه. وهذا أيضًا يعود إلى أهل العلم والفقه في الدين.

٦. أن يكون عندهم استغناء ذاتي فلا يمدون أيديهم إلى أعداء الإسلام. (١)

٧. أن لا تكون فتنة الخروج على الحاكم أعظم من فتنة الحاكم، وذلك أنَّ الهدف من الخروج عليه تحقيق المصلحة الشرعية، وهي إقامة دين الله، فإن غلب

(١) قاله العلامة الوادعي رحمه الله، والعلامة ابن باز كما في تعليقه على رسالة العزلة والخلطة.

على الظن أنَّ الخروج على الحاكم سيؤدي إلى نتائج سلبية فلا يصح الخروج عليه، ويجب الصبر.

فإذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير واختلال الأمن وظلم الناس واغتيال من لا يستحق الاغتيال فانَّ هذا لا يجوز بل يجب السمع والطاعة في المعروف ومناصحة ولاة الأمور والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله وتكثير الخير.

قال العلامة العباد: والكافر سواء كان أصليًا أو مرتدًا يجوز الخروج عليه، ولكن هذا الخروج مشروط في أن يكون وراءه فائدة وهي التخلص منه، أما إذا كان الخروج مع ضعف وعدم قدرة، وتكون النتيجة أن يقضي الكافر الأصلي أو المرتد على من خرج ويبقى الكافر في مكانه، فهذا ليس فيه مصلحة وليس فيه فائدة، وأما المسلم فلا يجوز الخروج عليه بحال، كما جاء ذلك مبينًا إلا في حالة الكفر البواح الذي عند الناس فيه من الله برهان. اهـ من شرح سنن أبي داود

قوله: فَبَيَّنَ اللهُ هَذا بَيانًا شافِيًا كافِيًا بِوُجُوهٍ مِنْ أَنْواعِ الْبَيَانِ شَرْعًا وَقَدَرًا:

أما بيانه شرعًا: ففي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:

كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

ومن بيانه في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ثبت في الصحيحين من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "**بايعنا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**".

وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** ".

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**".

وله عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ**"

وفي الصحيحين عَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ**".

وأما بيانه قدرًا:

أي أن يرى المتأمل في سنن الله الكونية والقدرية أنَّه متى كان الناس مجتمعين على أئمتهم حصل لهم التمكين في الأرض وجعل الله المهابة في قلوب أعدائهم كما كان في الصدر الأول.

وإن نازعوا الأمر أهله تفرقت كلمتهم وتوسعت دائرتهم وضعفت شوكتهم، ونزعت المهابة من قلوب أعدائهم؛ فاستضعفوهم وضربوا بعضهم ببعض، بل وأخذوا بعض ما في أيديهم.

دلَّ على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأنفال: ٤٦].

وفي سنن ابن ماجة عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: "... وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ"**.

فذهبت ريحهم، وتداعت عليهم الأمم وصاروا غثاء كغثاء السيل.

ومن البيان القدري أيضًا الذي يجري في سنة الله الكونية، أنَّ كلَّ مجتمع يتم الخروج فيه على ولي الأمر المسلم فإنَّه تحل به النكبات؛ من قتل الأنفس وهتك الأعراض واستباحة الأموال وتقطع السبل وذهاب الأمن وغير ذلك مما عايشه

الناس وعاينوه في كل من نقض عهد الله وعهد رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي عهد إليهم فخرجوا على ولاة أمورهم.

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٠٩):

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ الْإِمَامِ الْجَائِرِ أَوْلَى مِنَ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ، لِأَنَّ فِي مُنَازَعَتِهِ وَالْخُرُوجِ عَلَيْهِ اسْتِبْدَالَ الْأَمْنِ بِالْخَوْفِ، وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ، وَانْطِلَاقَ أَيْدِي السُّفَهَاءِ، وَشَنَّ الْغَارَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. اهـ

قوله: ثُمَّ صارَ هَذا الأَصْلُ لا يُعْرَفُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ، فَكَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ؟!:

وصدق رحمه الله فكم رأينا في زماننا هذا ممن يدعي العلم ويُشار له بالبنان، وهو لم يرفع بهذا الأصل رأسًا، فأفتى بالخروج على الحكام وكان أول النازعين لليد من الطاعة، وكم من هؤلاء المدعين للعلم، كانوا في مقدمة الذين قادوا الهمج الرعاع في هذه الفتن المدلهمة في الخروج على الحاكم المسلم، وليس والله من عدم معرفتهم بهذه الأدلة من الكتاب والسنة ولكنه الهوى إذا تجارى بصاحبه.

ثبت في السنة لابن أبي عاصم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**يَكُونُ أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، فَلاَ يَبْقَى مِنْهُ مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**".

أَيْ تَدْخُلُ وَتَسْرِي تِلْكَ الْأَهْوَاءُ والبدع حتى تتمكن من عقول أولئك الفئة، وتشربها قلوبهم، حتى يصعب عليهم التداوي منها، كما هو حال ذلك الذي يعضه الكلب المريض فإنَّه تسري الآلام والأوجاع إلى جميع جسده حتى يموت ويهلك والعياذ بالله.

فدَاءُ الْكَلْبِ هُوَ دَاءٌ يُصِيبُ الْكَلْبَ فَيُصِيبُهُ شِبْهُ الجنون فلا يعض أحد إِلَّا كَلُبَ وَيَعْرِضُ لَهُ أَعْرَاضٌ رَدِيَّةٌ وَيَمْتَنِعُ مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ حَتَّى يَمُوتَ عَطَشًا. (١)

وهذا حال أهل الأهواء المخالفين لسنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء موضحًا عند الطبراني عن معاوية: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "**إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، يَعْنِي الأَهْوَاءَ، وَكُلُّهَا فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**"، وَقَالَ: "**إِنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، فَلا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مَفْصِلٌ إِلا دَخَلَهُ**".

"فمن رزقه الله العقل السليم ويدرك الأمور على حقيقتها وله معرفة بتاريخ سلفنا وله معرفة بالدين يدرك تمامًا بأنَّ السمع والطاعة والبيعة والمحافظة على ذلك واجبة مطلقًا سواءٌ كان الوالي عادلًا أو فاجرًا أو مؤثرًا أو منفقًا محسنًا مسيئًا مطلقًا، مالم يظهر منه الكفر البواح، ومعنى البواح أي الكفر الذي يبوح به ويعلنه

(١) انظر عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٢/ ٢٢٣)، وشرح سنن أبي داود للعلامة العباد.

هذا معنى البواح ليس الكفر الخفي الذي لا يدرك بل الكفر الذي يعلن به هو ويدعو إليه لو راجعنا تاريخنا نجد إن بعض الصحابة صغار الصحابة الذين أدركوا بعض الخلفاء والملوك الجائرين الظالمين كالحجاج كانوا يصلون خلفهم لأنه في العهد السابق الخلفاء هم الذين يؤمون الناس، يصلون خلفهم، ويجاهدون تحت رايتهم، ويطيعونهم في كل ما يأمرون وينهون مالم يأمروا بمعصية على هذا مضوا السلف الصالح الذين أدركوا زمن الأهواء بعد أن فسدت أخلاق كثير من الأمراء والحكام.

هذا الذي عليه الناس قديمًا واليوم لا يسع المسلمين إلا ما وسع الأولين يقول إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها**".

لا يُصلِح أمر المسلمين اليوم إلا ما أصلح أمر المسلمين الأولين وإنما صلح أمرهم بالاجتماع وعدم التفرق، وإنما صلح أمرهم بالسمع والطاعة وعدم الخروج". (١)

فائدة: في نقل إجماع أهل العلم على حرمة الخروج على الحاكم المسلم:

أجمع أهل العلم على تحريم الخروج على الحكام الظلمة والأئمة الفسقة بالثورات أو الانقلابات أو غير ذلك للأحاديث الناهية عن الخروج ولِما يترتب

(١) انظر الأمالي الجامية في شرح الأصول الستة للعلامة الجامي رحمه الله.

على ذلك من مخالفة منهج الأنبياء وظهور الفتن، وقد نقل هذا الإجماع جَمْع من العلماء.

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري:

لقيتُ **أكثر من ألف رجل من أهل العلم**؛ أهل الحجاز ومكَّة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر، لقيتهم كرَّات قرنًا بعد قرن، ثمَّ قرنًا بعد قرن، أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ستٍّ وأربعين سنة فما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء:... وأن لا ننازع الأمر أهله، لقول النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتهم تحيط من وراءهم**" وأن لا يرى السيف في أمَّة محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ [1]

وقال النووي في شرح مسلم (١٢/ ٢٢٩):

وَأَمَّا الْخُرُوج عَلَيْهِمْ وَقِتَالهمْ فَحَرَام **بِإِجْمَاعِ** الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانُوا فَسَقَة ظَالِمِينَ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الأَحَادِيث بِمَعْنَى مَا ذَكَرْته، وَأَجْمَعَ أَهْل السُّنَّة أَنَّهُ لا يَنْعَزِل السُّلْطَان بِالْفِسْقِ، وَأَمَّا الْوَجْه الْمَذْكُور فِي كُتُب الْفِقْه لِبَعْضِ أَصْحَابنَا أَنَّهُ يَنْعَزِل، وَحُكِيَ عَنْ الْمُعْتَزِلَة أَيْضًا فَغَلَط مِنْ قَائِله، مُخَالِف لِلإِجْمَاعِ. اهـ

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٧):

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي (١/ ١٧٢).

وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء.. ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح. اهـ

الأَصْلُ الرَّابِعُ

بَيانُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَالْفِقْهِ وَالْفُقَهَاءِ، وَبَيانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ.

جاء المؤلف بهذا الأصل لأنَّه من أهم الأمور التي تقوم عليها حياة المسلمين في مجال العلم والدعوة إلى الله، ولأنَّ معرفة ما مضى في الأصول الأولى كلها يرجع إلى هؤلاء العلماء، فإن لم يعرف العبد من هم العلماء الذين يُرجع إليهم ضلَّ.

فالناس لا غنىً لهم عن العلماء وحاجتهم إليهم عظيمة، فهم ورثة الأنبياء، وإنما سمى العلماء ورثة الأنبياء، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [سورة فاطر: ٣٢]. ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**". رواه أبو داود وأحمد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الصحيحين عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**".

فالعلماء في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض

من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء: ٥٩]. (١)

وما أحسن ما قاله الإمام أحمد في كتابه الرد على الزنادقة والجهمية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةً مِنْ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إلَى الْهُدَى وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى؛ فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لإبليس قَدْ أَحْيَوْهُ وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ وَأَقْبَحَ أَثَرِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ؛ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ وَأَطْلَقُوا عِقَالَ الْفِتْنَةِ.

فقوله: بَيانُ الْعِلْمِ وَالْعُلَماءِ:

المراد بالعلم هنا العلم الشرعي وهو: "علم ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى"، والعلم الذي فيه المدح والثناء هو علم الشرع علم ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [سورة الزمر: ٩].

الْعلم قَالَ الله قَالَ رَسُوله ... قَالَ الصَّحَابَة هم أولو الْعرْفَان

(١) انظر إعلام الموقعين (١/ ٩).

مَا الْعلم نصـــبك للْخلاف ســـفاهة بَـين الـرَّسُـــول وَبَـين رَأْي فـلَان

وما عدا ذلك من العلوم فإن كان وسيلة إلى خير فهو خير، وإن كان وسيلة إلى شر فهو شر، وإن لم يكن وسيلة لهذا وهذا فهو ضياع وقت ولغو. (١)

قوله: وَالْفِقْهِ وَالْفُقَهَاءِ:

الفقه لغة: الفَهم، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [سورة هود: ٩١]. وقوله سبحانه: ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النساء: ٧٨].

والمراد بالفقه هنا: إدراك الشريعة وفهمها، وهو المقصود بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**". (٢)

فالفقيه في دينه هو العالم بأحكام الشرع العامل بها، هذا هو الفقيه الحق.

قال ابن بطال:

فيه فضل الفقه في الدين على سائر العلوم، وإنما ثبت فضله، لأنه يقود إلى خشية الله، والتزام طاعته، وتجنب معاصيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]. وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- للذي قال له فقيه -: "**إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة**". اهـ (٣)

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٧/ ٩٦)

(٢) متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه

(٣) شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٦٦)

فلابد من معرفة من هم العلماء حقًا، فهم الربانيون الذين يربُّون الناس على شريعة ربهم، فلابد من معرفتهم حتى يتميز هؤلاء الربانيون عمن تشبه بهم وليس منهم؛ ولهذا قال:

قوله: وَبَيَانُ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ:

أي يتشبه بهم في المظهر والمنظر والمقال، لكنه ليس منهم في النصيحة للخلق وإرادة الحق، فأحسن ما عنده أن يلبس الحق بالباطل ويصوغه بعبارات مزخرفة.

فلا بد من التفريق بين التشبه بأهل العلم الذي ينتفع العبد به؛ وبين التشبه بهم بما يُقصد منه التلبيس على الناس لأجل أن يغتروا بهم.

فالتشبه نوعان:

الأول: التشبه بأهل العلم في أخلاقهم وفي علمهم وفي عملهم، وفي دعوتهم وفي سلوكهم محاولين أن يكونوا مثلهم، وهو بمعنى التأسي بهم فهذا محمود ونافع لهم كما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إنَّ التشبه بالكرام فلاح

الثاني: التشبه بأهل العلم في مظهرهم ومقالهم وهم غير عاملين به، وقصدهم به إما حظ أنفسهم، أو اتباع أهوائهم، وهم الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون.

فالفرق بين العلماء الربانيين والمتزيين بزيهم في أمرين عظيمين:

أنَّ أهل العلم الربانيون هم العاملون بالحق، الناصحون للخلق، وهذه أعظم صفاتهم.

والمتشبهون بهم وليسوا منهم هم الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون.

فخذ بهذين الأمرين واظفر بهما وسيأتي ما يدل عليهما.

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالى هَذا الأَصْلَ في أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٠].

إِلى قَوْلِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة البقرة: ٤٧].

وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا صَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ في هَذا الْكَلامِ الْكَثيرِ الْبَيِّنِ الْواضِحِ لِلْعامِيِّ الْبَليدِ.

قوله: وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالى هَذا الأَصْلَ في أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

أي بيَّن ربنا سبحانه في هذه الآيات من هم العلماء الربانيون؛ ومن هم الذين يتزيون بزي العلماء وليسوا منهم.

والآيات كاملة هي قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ [سورة البقرة: ٤٠-٤٧].

هذه الآيات ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها علامات وأمارات علماء السوء.

فهي وإن كانت في بني إسرائيل لكن كما قال سفيان بن عُيينة وغيره من السلف: من فسد من علمائنا ففيه شَبَه من اليهود ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شَبَه من النصارى.

فإنَّ اليهودَ عرفوا الحق وما عملوا به؛ فالعالمُ الفاجر فيه شَبَه منهم، والنصارى عبدوا الله بغير علم؛ فالعابد الجاهل فيه شَبَه منهم.

ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مما سبق في علمه سبحانه، ففي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: "**فَمَنْ**".

فمن صفات علماء السوء المذكورة في الآيات:

١. لا يذكرون نعمة الله عليهم فيما آتاهم الله من العلم، ومنَّ عليهم به، ولو ذكروا هذه النعمة لعملوا به.

٢. لا يوفون بعهد الله، وأعظم عهدٍ أُخِذ على أهل العلم هو متابعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمر، وتبليغ العلم للناس.

٣. أنهم من أول الناس ممن يخالفون أمر الله وأمر رسوله، والناس تبع لهم.

٤. أنهم يتخذون الدين وسيلة لأخذ أموال الناس بالباطل.

٥. أنهم يلبسون الحق بالباطل ليصدوا أتباعهم عن الحق.

٦. أنهم يكتمون الحق مع علمهم بذلك.

٧. أنهم يأمرون الناس بالبر وهم مخالفون لذلك.

وغير ذلك من الصفات.

قوله: وَيَزِيدُهُ وُضُوحًا مَا صَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ:

فمن ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: **"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللّهُ بِهَا النّاسَ. فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعَوْا. وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلاً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا. وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ"**.

وفي الحديث ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمورًا مهمة لا بد من الوقوف عليها:

١. أنَّ العلم والهدى الذي بُعث به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل المطر فالماء تحيا به الأرض، والعلم والهدى تحيا به الروح.

٢. أنَّ القلوب مثل الأراضي من حيث الانتفاع، فالأرض ينزل عليها المطر، والقلوب يقع عليها العلم.

٣. أنَّ انتفاع الأرض بالمطر بحسب قابليتها، وانتفاع القلوب بالعلم بحسب قابليته أيضًا.

٤. أنَّ الناس في قبولهم للعلم الذي أرسل به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ثلاثة أقسام:

الأول: من جمع بين الفضيلتين؛ بين الحفظ للشريعة الإسلامية والفهم فيها، وتعليمها للناس.

فقوله (قَبِلَتِ الْمَاءَ) هذا كناية عن الحفظ، (فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ) وهذا كناية عن الفهم، وعن النفع فهو منتفع في نفسه نافع غيره.

الثاني: من حفظ وأدى ما حفظ على ما سمع، فحفظ القرآن والسنة، كما في قوله (وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ).

الثالث: من لم يُعط حفظا ولم يُعط فهما، فهُم بمنزلة الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء، وهؤلاء هم الأشقياء.

فالقسمان الأول والثاني هم السعداء وهم الذين علموا وعملوا وعلَّموا، فقال: (فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ) أي علم في نفسه أولا، ثم أبدى علمه إلى الناس فانتفعوا به في تبيين الحلال من الحرام.

والقسم الثالث هم علماء السوء والأشقياء، فقال: (وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)، فظهر بهذا التشبيه في هذا الحديث فضل العلماء ومكانتهم وعموم نفعهم.

ثُمَّ صارَ هَذا أَغْرَبَ الأَشْياءِ، فَصارَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ هُوَ الْبِدَعُ والضَّلالاتُ، وَخِيارُ ما عِنْدَهُمْ لَبْسُ الْحَقِّ بِالْباطِلِ، وَصارَ الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعالى عَلى الْخَلْقِ وَمَدَحَهُ لا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلا زِنْدِيقٌ أَوْ مَجْنونٌ، وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعاداهُ وَصَنَّفَ في التَّحْذيرِ مِنْهُ وَالنَّهْيِ عَنْهُ؛ هُوَ الْفَقيهَ الْعالِمَ.

قوله: ثُمَّ صارَ هَذا أَغْرَبَ الأَشْياءِ:

قوله: أَغْرَبَ من أَتَى الغرب وَصَارَ غَرِيبا وارتحل وَجَاء بالشَّيْء الْغَرِيب وَفِي كَلاَمه أَتَى بالغريب الْبعيد عَن الْفَهم. (١)

ووجه الغرابة من وجهين:

الأول: أنَّ معرفة العلم والعلماء ومعرفة أهله ومعرفة الذين ليسوا من أهله صار أمرًا بعيدًا لا يكاد يُعرف.

الثاني: أنَّ الأمر التبس على الناس في أمر العالم مِن غير العالم، فصار من يميِّز أهل العلم ممن ليسوا منه صار غريبا، وكلامه غريب لا يكاد يفهمه ويفقهه إلا من وفقه الله.

---

(١) المعجم الوسيط (٢/ ٦٤٧)

حتى إنك لتجد من يتكلم في بعض المتعالمين، وفيمن يلبس لباس العلماء وليس منهم فإنَّه يُلمز بأنَّه يطعن في العلماء، بل يُطعن فيه ويُتهم بأنَّه منافق وعميل.

قوله: فَصارَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ هُوَ الْبِدَعُ والضَّلالاتُ:

أي انقلبت الموازين وانعكست المفاهيم فصار أهل البدع والضلالات هم من يشار إليهم بالعلم والفقه وأنهم أهله، ويعظمون وينشر لهم الكتب ويستضافون في الإذاعات وغيره.

ولو نظرت لرأيت ذلك عيانًا، فترى من ينادي إلى التصوف والتشيع والأهواء والحزبيات والضلالات، صاروا رؤساء عند الناس والناس يصدُرون عن غالب رأيهم.

وانظر على سبيل المثال إلى هؤلاء:

١. القرضاوي وكيف رُفِع حتى صار رئيس رابطة علماء العالم الإسلامي وعنده ما عنده من الضلالات التي لا تخفى إلا على صاحب هوى، حتى قال بعضهم لولا القرضاوي ما عُبِد الله في الأرض!!

٢. عمر باحفيظ الصوفي الذي رفعته حتى الدولة في بلاد اليمن فجعلت له برامجَ يأتي بها على شاشة التلفاز في رمضان، وعنده شركيات وضلالات وخرافات ودعوة إلى عبادة القبور، وتعظيم الفجرة والكفرة كابن عربي والحلاج وغيره.

٣. على الجفري الذي صار في دولة الإمارات له شأن، وهو ذاك الضال الذي يدعو إلى الشرك بالله.

٤. الزنداني الذي غرَّ الناس في اليمن بدعوته إلى الخروج على الحكام وحصل من الفساد ما الله به عليم.

٥. العِيسي الذي صار له شأن في السعودية وهو من دعاة وحدة الأديان ويعظم النصارى ومن إليهم.

٦. وعلى الساحة الدعوية محمد بن المختار الشنقيطي وصالح المُغامسي وعبد العزيز الطريفي والعريفي والعوضي وعمرو خالد ومحمود حسنات والنابلسي وخالد الراشد.

وغيرهم من دعاة الثورات والانقلابات والخروج على الحكام؛ الذين صار الناس ينظرون لهم أنهم أهل العلم والفقه في الدين، وأنهم الدعاة الذين فقهوا أمر الواقع ولامسوا قلوب الناس وفهموا حاجياتهم، وأنهم هم العلماء الربانيون الذين من تكلم فيهم فقد تكلم في العلماء الربانيين.

قوله: وَخِيارُ ما عِنْدَهُمْ لَبْسُ الْحَقِّ بِالْباطِلِ

أي صفوة ما عند هؤلاء وأجوده هو لبس الحق بالباطل؛ فهو متفننون في ذلك، ولهم في ذلك طرقٌ وأساليب يستغفلون بها قلوب كثير من الناس فصدقوهم واتبعوهم إلا فريقا ممن وفقه الله.

قال العلامة العثيمين: فلا بد من معرفة من هم العلماء حقًا، هم الربانيون الذين يربون الناس على شريعة ربهم، حتى يتميز هؤلاء الربانيون عمن تشبه بهم وليس منهم، يتشبه بهم في المظهر والمنظر والمقال والفعال، لكنه ليس منهم في النصيحة للخلق وإرادة الحق، فخيار ما عنده أن يلبس الحق بالباطل ويصوغه بعبارات مزخرفة، يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل هو البدع والضلالات الذي يظنه بعض الناس هو العلم والفقه وأنَّ ما سواه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون. اهـ[1]

قوله: وَصارَ الْعِلْمُ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعالى عَلى الْخَلْقِ:

المقصود به هو العِلم باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه، وهو أشرَفُ العُلُومِ وأجَلُّها على الإطلاقِ.

قال اللاَّلَكائيُّ: أوجَبُ ما على المرءِ: مَعرفةُ اعتقادِ الدِّينِ، وما كَلَّف اللهُ به عبادَه مِن فَهمِ توحيدِه وصِفاتِه، وتصديقِ رُسُلِه بالدَّلائِلِ واليَقينِ، والتَّوصُّلِ إلى طُرُقِها والاستِدلالِ عليها بالحُجَج والبَراهينِ. اهـ[2]

قال العلامة العثيمين: العِلمُ النَّافِعُ يتضَمَّنُ كُلَّ عِلمٍ يكونُ للأمَّةِ فيه خيرٌ وصلاحٌ في مَعاشِها ومَعادِها، وأوَّلُ ما يَدخُلُ في ذلك العِلمُ بأسْماءِ اللهِ وصِفاتِه

---

(١) من شرح كشف الشبهات.

(٢) ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) (١/ ٧).

وأفعالِه؛ فإنَّ العِلمَ بذلك أنفَعُ العُلُومِ، وهو زُبدةُ الرِّسالةِ الإلهِيَّةِ، وخُلاصةُ الدَّعوةِ النَّبَويَّةِ، وبه قِوامُ الدِّينِ قَولًا وعَمَلاً واعتِقادًا. اهـ[1]

قوله: وَمَدَحَهُ:

الآيات والأحاديث التي تمدح هذا العلم كثيرة، ومنها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [سورة الزمر: ٩].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة المجادلة: ١١].

وقوله جل شأنه: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الرعد: ١٩].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

---

(١) ((فتح رب البرية بتلخيص الحموية)) (ص: ٩).

وفي الصحيحين عن معاوية أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"**

وفي سنن أبي داود: **"وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"**. (١)

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تمدح هذا العلم؛ علم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: لا يَتَفَوَّهُ بِهِ إِلا زِنْدِيقٌ أَوْ مَجْنُونٌ:

أي أنَّ من دعا إلى معرفة الله سبحانه، وإلى توحيده وإخلاص العبادة له، ودعا الناس إلى الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا إلى ترك الشرك والبدع والضلالات والحزبيات والتعصبات لمزوه بالألقاب ونبزوه واستهزأوا به.

فمن قائل لا يفقهون فقه الواقع (٢)، وقائل: هؤلاء علماء حيض ونفاس، وعلماء أحكام الاستجمار، وعلماء جزئيات، عملاء للحكام، منافقون، بعد الدولار والريال السعودي، مدعومون من الغرب، يتلقون أوامرهم من أمريكا، وغير ذلك.

---

(١) (صحيح) رواه أبو داود (٣/ ٣١٧) (٣٦٤١) والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء.

(٢) فقه الواقع عندهم معرفة أمور السياسة ومعرفة ثقافة الجرائد والصحف. قاله الفوزان.

قوله: وَصَارَ مَنْ أَنْكَرَهُ وَعادَاهُ وَصَنَّفَ فِي التَّحْذيرِ مِنْهُ وَالنَّهْيِ عَنْهُ؛ هُوَ الْفَقيهَ الْعالِمَ.

صار الذي يؤلف في تقرير ما عليه عامة الناس من البدع والشرك وتعظيم غير الله، والذي يرد على أهل السنة ويطعن في حملة العلم الحق، صار هو العالم الجهبذ الإمام المتبع.

الأَصْلُ الْخامِسُ

بَيانُ اللهِ سُبْحانَهُ لأَوْلِياءِ اللهِ، وَتَفْريقُهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَعْداءِ اللهِ المُنافِقينَ وَالْفُجَّارِ، وَيَكْفِي في هَذا: آيَةٌ في سُورَةِ آلِ عِمْرانَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. وَآيَةٌ في سُورَةِ المائِدَةِ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: ٥٤]. وَآيَةٌ في يُونُسَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة يونس: ٦٢-٦٣].

هذا الأصل فيه بيان أمرٍ عظيم يشكل على كثير من الناس، فالله سبحانه وتعالى له أولياء من خلقه، وكذا الشيطان له أولياء من الناس، وكثيرٌ من الناس لا يفرق بين من كان وليًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن كان وليًا للشيطان.

فكم من رجلٍ يصفه الناس أنَّه ولي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو من أولياء الشيطان.

وكم من مغمور عند الناس لا يكاد يعرفه الناس ولا يأبهون له وهو من أولياء الله، كل ذلك لجهل الناس في التفريق بين أولياء الله وأولياء الشيطان.

وقبل ذلك لا بد من معرفة أمور [1] :

١. تعريف الولي.

الولي في اللغة: القريب والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب.

والمراد بأولياء الله هم خُلَّصُ المؤمنين وصفوتهم؛ الذين يؤمنون بما يجب الإيمان به ويتقون ما يجب عليهم اتقاؤه من المعاصي، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قال الحافظ: " المراد بوليّ الله العالم بالله تعالى المواظب على طاعته المخلص في عبادته". اهـ [2]

فالولي هو الذي تولاه الله سبحانه وتعالى فهداه ووفقه وأعانه وسدده وتكفَّل به، ونصره على نفسه وشيطانه، كما في حديث: "**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**". [3]

٢. أعظم مظاهر التقوى في أولياء الله عدم تزكية النفس:

لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة النجم: ٣٢].

---

(١) انظر لهذا كله إتحاف السائل بما في الطحاوية من المسائل للشيخ صالح آل الشيخ عند قول الطحاوي: وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٢٩٣).

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة.

فمن زَكَّى نفسه وقال: أنا تقي، أو أنا من أولياء الله ونحو ذلك، فهو حقيقٌ بالبُعْدِ عن استحقاق هذا اللفظ

٣. الله عز وجل وليٌّ للعبد: أي يتولاه فيقربه ويحبه وينصره ويعينه ويؤيده.

فالولي مَنْ تَوَلَّى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رِعَايَتَهُ وَحِفْظَهُ، فَلاَ يَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٩٦].

والعبد أيضًا وليٌّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: يُحِبُّ ربه ﷻ ويحب كل ما يحبه الله، وينصر دينه وكتابه ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤. ولاية الله لعبده تتفاوت من عبدٍ لآخر.

قال الطحاوي: وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ. اهـ

فأولياء الرحمن هم المؤمنون، وكلُّ مؤمن له نصيبٌ من وَلَايَةِ الله عز وجل التي وَعَدَ بها عباده المؤمنين المتقين.

فإنَّ الإيمان يتفاضل أهله فيه، والتقوى يتفاضل أهلها فيها، فينتج من ذلك أنَّ وَلاية الله لعبده متفاضلة من عبدٍ لآخر.

فهم يتفاضلون في الوَلاية بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وهذا الأصل مُقَرَّرٌ في القرآن وفي السنة، ويزيد ذلك وضوحًا ما يلي:

٥. أولياء الله قسمان:

مقتصدون، وسابقون مُقَرَّبون، فالذين أُورِثُوا القرآن ثلاثة أصناف ذكرهم الله في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

والظالم لنفسه لا يستحق اسم الإيمان المطلق ولا التقوى المطلقة، فخَرَجَ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة يونس: ٦٣]. فبقي أنَّ الأولياء المؤمنين المتقين صنفان: المقتصد، والسابق بالخيرات.

والسابق بالخيرات أطوَعُ وأتبَعُ للقرآن مِنَ المقتصد، فنصيبه من الولاية -وهي محبة الله عز وجل له ونُصْرَتُهُ له- أعظم من نصيب المقتصد وهؤلاء هم الذين جاء فيهم الحديث المشهور المسمى بحديث الولي.

٦. لا يشترط في الولي أن تكون له خوارق عادات، وكرامات.

قال شيخ الإسلام:

وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مُقَلِّدًا فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ، فَإِنَّهُ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ وَأَنَّ وَلِيَّ اللَّهِ لَا يُخَالِفُ فِي شَيْءٍ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَكْبَرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَأَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ مَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ؛ فَكَيْفَ إذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ؟.

وَتَجِدُ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ عُمْدَتُهُمْ فِي اعْتِقَادِ كَوْنِهِ وَلِيًّا لِلَّهِ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ عَنْهُ مُكَاشَفَةٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَوْ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، مِثْلِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى شَخْصٍ فَيَمُوتَ؛ أَوْ يَطِيرَ فِي الْهَوَاءِ إِلَى مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا أَوْ يَمْشِيَ عَلَى الْمَاءِ أَحْيَانًا؛ أَوْ يَمْلأَ إِبْرِيقًا مِنْ الْهَوَاءِ؛ أَوْ يُنْفِقَ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ مِنَ الْغَيْبِ، أَوْ أَنْ يَخْتَفِيَ أَحْيَانًا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ؛ أَوْ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَغَاثَ بِهِ وَهُوَ غَائِبٌ أَوْ مَيِّتٌ فَرَآهُ قَدْ جَاءَهُ فَقَضَى حَاجَتَهُ؛ أَوْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِمَا سُرِقَ لَهُمْ؛ أَوْ بِحَالِ غَائِبٍ لَهُمْ أَوْ مَرِيضٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ؛ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَاحِبَهَا وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ بَلْ قَدِ اتَّفَقَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ لَمْ يُغْتَرَّ بِهِ حَتَّى يَنْظُرَ مُتَابَعَتَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُوَافَقَتَهُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَكَرَامَاتُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ صَاحِبُهَا وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ يَكُونُ عَدُوًّا لِلَّهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْخَوَارِقَ تَكُونُ لِكَثِيرٍ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْبِدَعِ، وَتَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَلاَ يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ وَلِيٌّ لِلَّهِ؛ بَلْ يُعْتَبَرُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ بِصِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَيُعْرَفُونَ بِنُورِ الْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ وَبِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنَةِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلاَمِ الظَّاهِرَةِ.

اهـ [1]

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ١٨٨).

٧. ما كل من ادعى الولاية أو ادعيت له يكون كذلك:

حتى يكون موحدًا لله، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله، مجانبًا للشرك والبدع.

٨. أولياء الشيطان هم أتباعه:

من المشركين والمخرفين والمبتدعة، الذين يميتون السنن ويحيون البدع والمخالفات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النحل: ١٠٠].

قوله: بَيانُ اللهِ سُبْحانَهُ لأَوْلِياءِ اللهِ، وَتَفْرِيقُهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ مِنْ أَعْداءِ اللهِ المُنافِقِينَ وَالْفُجَّارِ

أي بين الله في كتابه الأوصاف التي يعرف بها أولياء الله من أولياء الشيطان، بما يتميز بها هؤلاء من هؤلاء.

قوله: وَيَكْفِي فِي هَذا: آيَةٌ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرانَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

قوله تعالى: (فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ): هذا من أهم ما يميز أولياء الله عَزَّوَجَلَّ وأعظم صفاتهم أنهم أتباع للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يغيرون ولا يبدلون ولا يرتضون بهذا النهج بدلًا.

فعلى قدر ما يكون مع الإنسان من اتباع هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قدر ما يكون عنده من ولاية الله له، وبقدر ما يكون معه من تقصير فإنَّه ينقص عنه من ولاية الله له بقدر ما حصل منه من التقصير.

قوله: وَآيَةٌ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [سورة المائدة: ٥٤].

فوصفهم بأوصاف هي علامة المحبة وثمراتها:

الأول: أنهم أذلة على المؤمنين فلا يحاربونهم ولا يقفون ضدهم ولا ينابذونهم.

الثاني: أنهم أعزة على الكافرين أي أقوياء عليهم غالبون لهم.

الثالث: أنهم يجاهدون في سبيل الله أي يبذلون الجهد في قتال أعداء الله لتكون كلمة الله هي العليا.

الرابع: أنهم لا يخافون في الله لومة لائم. أي إذا لامهم أحد على ما قاموا به من دين الله لم يخافوا لومته، ولم يمنعهم ذلك من القيام بدين الله عز وجل.

قوله: وَآيَةٌ فِي يُونُسَ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [سورة يونس: ٦٢-٦٣].

فبين الله تعالى أن أولياء الله تعالى هم الذين اتصفوا بهذين الوصفين: الإيمان والتقوى فالإيمان بالقلب، والتقوى بالجوارح، فمن ادعى الولاية ولم يتصف بهذين الوصفين فهو كاذب.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الْمُطِيعُونَ لِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَجَعْلِهِ الدِّينِيِّ وَإِذْنِهِ الدِّينِيِّ وَإِرَادَتِهِ الدِّينِيَّةِ. وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ؛ فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ حَتَّى إبْلِيسَ وَجُنُودَهُ وَجَمِيعَ الْكُفَّارِ وَسَائِرَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ، فَالْخَلْقُ وَإِنْ اجْتَمَعُوا فِي شُمُولِ الْخَلْقِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْقَدَرِ لَهُمْ فَقَدْ افْتَرَقُوا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ.

وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ الْمُتَّقُونَ هُمْ الَّذِينَ فَعَلُوا الْمَأْمُورَ وَتَرَكُوا الْمَحْظُورَ، وَصَبَرُوا عَلَى الْمَقْدُورِ، فَأَحَبَّهُمْ وَأَحَبُّوهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ.

وَأَعْدَاؤُهُ أَوْلِيَاءُ الشَّيَاطِينِ، وَإِنْ كَانُوا تَحْتَ قُدْرَتِهِ، فَهُوَ يُبْغِضُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِمْ وَيَلْعَنُهُمْ وَيُعَادِيهِمْ. اهـ [1]

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص: ٢٧٦)

ثُمَّ صارَ الأَمْرُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعي الْعِلْمَ، وَأَنَّهُ مِنْ هُداةِ الخَلْقِ وَحُفَّاظِ الشَّرْعِ إِلى: أَنَّ الأَوْلِياءَ لا بُدَّ فِيهِمْ مِنْ تَرْكِ اتِّباعِ الرُّسُلِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَيْسَ مِنْهُمْ! وَلا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الجِهادِ، فَمَنْ جاهَدَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ! وَلا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الإِيمانِ وَالتَّقْوَى، فَمَنْ تَعَهَّدَ بِالإِيمانِ وَالتَّقْوى فَلَيْسَ مِنْهُمْ! يا ربَّنا! نَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعافِيَةَ؛ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ.

يتكلم الشيخ رحمه الله عن أتباع الشيطان وما زين لهم من الباطل حتى صار الحق عندهم باطلاً، والباطل حقًا، وتركوا في الحقيقة العمل بالقرآن.

قوله: ثُمَّ صارَ الأَمْرُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدَّعي الْعِلْمَ، وَأَنَّهُ مِنْ هُداةِ الخَلْقِ وَحُفَّاظِ الشَّرْعِ:

أي انقلبت الموازين عند هؤلاء المخالفين المدعين للعلم، الذين يزعمون أنهم هداة للخلق، وأنَّ الشرع يُحفظ بهم.

فزعموا أمورًا مخالفةً للشرع، وهؤلاء على رأسهم الصوفية الذين جعلوا ساداتهم وكبراءهم قد بلغوا منزلة لم يبلغها رسول ولا نبي، وأنهم فهموا القرآن بما لم يفهمه أحدٌ من الخلق.

ولو نظرت في عقائد الصوفية وأفكارهم على اختلاف مدارسهم وطرقهم لرأيت شيئًا عجبًا.

والشيخ رحمه الله كان في زمنٍ كثُر فيه من يعظِّمُ قبور من يسمونهم الأولياء، ومن يعظمون مشايخهم ويرفعونهم فوق منزلتهم، فربما أعطوا مشايخ طريقتهم مالم يُعطه نبيٌ ولا رسولٌ.

قوله: أَنَّ الأَوْلِياءَ لا بُدَّ فِيهِمْ مِنْ تَرْكِ اتِّباعِ الرُّسُلِ:

ولو نظرت في عقائد الفرق الصوفية على مختلف فرقها وطرقها لرأيت أنَّهم يجعلون للأولياء عندهم ما لا يجعلونه للأنبياء، فهم يعتقدون أنَّ الولي يتلقى أوامره من الله مباشرة لا عن طريق الرسول، بمعنى أنَّه يوحى إليه.

ومنهم من يزعم أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يصل إلى مرتبتهم وحالهم، وأنَّه كان جاهلاً بعلوم رجال التصوف كما قال البسطامي: (خضنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله).

ومنهم من يفضل الولي على النبي وعامتهم يجعل الولي مساويًا لله في كل صفاته فهو يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويتصرف في الكون ولهم تقسيمات للولاية فهناك الغوث المتحكم في كل شيء في العالم، والأقطاب الأربعة الذين يمسكون الأركان الأربعة في العالم بأمر الغوث، والأبدال السبعة الذين يتحكم كل واحد منهم في قارة من القارات السبع بأمر الغوث، والنجباء كل واحد منهم يتصرف في ناحية تتحكم في مصائر الخلق، ولهم ديوان يجتمعون فيه في غار حراء كل ليلة ينظرون في المقادير.

فالأولياء عندهم مراتب ودرجات، وكل ولي عندهم قد وُكِّل بتصريف جانب من جوانب الخلق، حتى ينتهي الأمر إلى القطب، الذي يدبر شأن الملكوت كله، سماواته وأرضه.

فأفضل الأولياء عندهم هم "الأقطاب"، ويسمون القطب بـ "الغوث"، لكونه ملجأ الملهوفين.

وهؤلاء الأقطاب عندهم لهم التصرف المطلق الشامل في أمور الدنيا والآخرة.

كما يعتقد غلاة الصوفية: أنَّ أولياءهم يقولون للشيء: كن فيكون.

فعلى ذلك فهم لا يرون اتباع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يرون اتباع أوليائهم الذين يزعمون تلقي الأوامر عنهم، فما أمروهم أخذوا به ولو كان شركًا بالله سبحانه وتعالى، فبهم يسمعون وبهم يبصرون.

قوله: وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَيْسَ مِنْهُمْ:

أي من عمل بالكتاب والسنة، واتبع ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقام على الدين فليس من أولياء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: وَلا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الجِهادِ:

أي لابد لمن أراد أن يبلغ منازل الأولياء ويكون معهم؛ فلا بد له من ترك الجهاد، فهم لا يرون الجهاد لأعداء الله، ومن أراد منهم أن يصل إلى مرتبة الخواص منهم

فلابد من ترك ما كان عليه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فتلك مرتبة العوام، وأما الخواص منهم فقد سقطت عنهم تكاليف الأعمال. (١)

قوله: فَمَنْ جاهَدَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ!

أي من قام بالجهاد فليس بولي لله.

قوله: وَلا بُدَّ مِنْ تَرْكِ الإِيمانِ وَالتَّقْوَى فَمَنْ تَعَهَّدَ بِالإِيمانِ وَالتَّقْوى فَلَيْسَ مِنْهُمْ:

أي: من اتصف وحافظ على هذين الوصفين فليس من هؤلاء الأولياء المزعومين.

"حتى ادَّعَت طَائِفَة من الصُّوفِيَّة أَن في أَوْلِيَاء الله تَعَالَى من هُوَ أفضل من جَمِيع الْأَنْبِيَاء وَالرسل، وَقَالُوا من بلغ الْغَايَة القصوى من الْوِلَايَة سَقَطت عَنهُ الشَّرَائِع كلهَا من الصَّلَاة وَالصِّيَام وَالزَّكَاة وَغير ذَلِك وحلت لَهُ الْمُحرمَات كلهَا من الزِّنَا وَالْخمر

(١) الصوفية يقسمون الناس إلى ثلاث طوائف وعلى أساسه قسَّموا التوحيد: =
= **الطائفة الأولى:** العامة، ومن العامة جميع الأنبياء والمرسلين، وهؤلاء يسمونهم: أهل الشريعة، فلهم طاعات ولهم معاص، ويحرم عليهم الشرك، ويجب عليهم أن يوحدوا الله، ويخلصوا له العبادة، ويأتمروا بالأوامر وينتهون عن النواهي.
الطائفة الثانية: أهل الحقيقة الخاصة، وهؤلاء قد ارتفعوا درجة فصارت المعاصي كلها في حقهم طاعات، وسقطت عنهم التكاليف، واكتفوا بالشهود والنظر إلى ربوبية الله ومشيئته، وشمول قيوميته، وانفراده بخلق الأشياء، وألغوا صفاتهم وأفعالهم وجعلوها صفات لله، فسقطت عنهم التكاليف، فصار جميع ما يصدر منهم طاعات.
الطائفة الثالثة: أهل التحقيق وهم خاصة الخاصة، وهؤلاء ليس عندهم طاعات ولا معاص أبداً؛ وهم أهل وحدة الوجود، لأن الوجود عندهم واحد، فالعبد هو الرب والرب هو العبد. دروس في العقيدة للعلامة عبد العزيز الراجحي.

وَغير ذَلِك واستباحوا بِهَذَا نسَاء غَيرهم وَقَالُوا أننا نرى الله ونكلمه وَكلما قذف فِي نفوسنا فَهُوَ حق". (١)

وكل ما ذكر إنما هو انحراف في معنى الولاية، وخروج عن حقيقة الولاية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه؛ مِن أنَّ الولي الحق هو الذي يكون على الإيمان والتقوى، ويلازم هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقتفي أثره ولا يخالفه طرفة عين، فهذا هو الولي الحق.

أما من خالف ذلك كله فليس من أولياء الله؛ ولو زعم أتباعه ذلك وبنوا على قبره قبة، فالولي من تولاه الله سبحانه وتعالى، لا من تولاه الناس وعبدوه من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/ ١٧٠).

الأَصْلُ السَّادِسُ

رَدُّ الشُّبْهَةِ الَّتِي وَضَعَها الشَّيْطانُ فِي تَرْكِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَاتِّباعِ الآراءِ وَالأَهْواءِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ وَهِيَ: أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لا يَعْرِفُهُما إِلا الْمُجْتَهِدُ الْمُطْلَقُ، وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِكَذا وَكَذا -أَوْصافًا لَعَلَّها لا تُوجَدُ تَامَّةً فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ! -، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الإِنْسانُ كَذَلِكَ؛ فَلْيُعرِضْ عَنْهُما فَرْضًا حتمًا -لا شَكَّ وَلا إِشْكالَ فِيهِ! -.

هذا الأصل بيانٌ لأمرين:

الأول: بيان أنَّ وقوع الناس في مخالفة الأصول السابقة إنما هو بسبب ظنِّهم أنَّ فهم القرآن والسنة ليس لكل أحدٍ، وإنما هو للمجتهد المطلق.

الثاني: دعوة إلى تدبر الكتاب والسنة وترك التعذر بعدم فهمها؛ ففي بيان الشيخ في الأصول السابقة أنَّ القرآن في غاية الوضوح.

قوله: رَدُّ الشُّبْهَةِ الَّتِي وَضَعَها الشَّيْطانُ:

الشُّبْهَةُ هي: "الشّكوك التي توقع في اشتباه الحقِّ بالباطل، فيتولّد عنها الحيرة والرّيبة".

والمقصود بقوله: **وضعها الشيطان**، أي قذفها الشيطان في قلوب أوليائه فلبَّسوا بها على الناس؛ ليصدوهم عن طريق الحق والتمسك بالكتاب والسنة.

قوله: فِي تَرْكِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَاتِّبَاعِ الآراءِ وَالأَهْواءِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ:

أي الشبهة التي بسببها ترك الناسُ العمل بالكتاب والسنة؛ وذهبوا يتتبعون أهل الكلام والشقشقة، ويسعون بعد الأهواء المضلة عن الطريق المستقيم.

ومقصود الشيخ هنا هو مناقشة هذه الشبهة التي هي عقبة أمام سالك طريق الحق وردها وذلك لأمور:

الأول: حتى لا يتحجج بها المخالفون للكتاب والسنة.

الثاني: حتى لا يغتر بها من جاء بعدهم فيتبعون سبيلهم.

الثالث: ليزداد المتمسك بالكتاب والسنة بصيرة برد مثل هذه الشبه.

قوله: وَهِيَ: أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ لا يَعْرِفُهُما إِلا الْمُجْتَهِدُ الْمُطْلَقُ

ولا بد أولًا مِن معرفة أنَّ ثمَّة فرقًا بين فهم آيات القرآن العظيم وفهم السنة النبوية -وهما في غاية الوضوح-؛ وبين الاجتهاد في استنباط دقائق المسائل والأحكام، التي ينتبذ لها أهلها الذين وهبوا أنفسهم لخدمة دين الله عز وجلَّ فعلموا وعملوا وعلَّموا، والذين قال عنهم الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [سورة النساء: ٨٣].

فإنَّ القرآن العظيم آياته واضحة بيِّنة كما مر من تقرير الشيخ في الأصول السابقة التي بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه يفهمها العامي البليد فضلاً عن غيره؛ فأين هؤلاء من فهم هذا.

فكم نجد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الدعوة إلى تدبر كتابِه الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة النساء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة ص: ٢٩].

فكيف يُقال بعد ذلك أنَّ الكتاب والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق الذي توفرت فيه شروط الاجتهاد، وهو الَّذِي يُفْتِي فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الشَّرْعِ بِمَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ، **والذي قَالَ عنه النَّوَوِيّ فِي " شرح الْمُهَذّب "**: فُقِدَ الْآن الْمُجْتَهد الْمُطلق وَمن دهر طَوِيل". اهـ

هذا يقوله النووي في زمنه، فكيف بأزماننا هذه.

فهل على ما يزعمه هؤلاء -الذين أخبر عنهم الشيخ- يعنون أن القرآن والسنة لا يكاد يفقهه أحدٌ في هذا الزمان؟

سبحانك هذا بهتان عظيم.

قوله: وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِكَذا وَكَذا -أَوْصافًا لَعَلَّها لا تُوجَدُ تَامَّةً فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ!

-:

أي أوصاف المجتهد المطلق وهو من اتصف بأوصاف كثيرة ومنها:

١. أن يعلم من الأدلة الشرعية ما يحتاج إليه في اجتهاده كآيات الأحكام وأحاديثها.

٢. أن يعرف ما يتعلق بصحة الحديث وضعفه كمعرفة الإسناد ورجاله وغير ذلك.

٣. أن يعرف الناسخ والمنسوخ ومواقع الإجماع حتى لا يحكم بمنسوخ أو مخالف للإجماع.

٤. أن يعرف من الأدلة ما يختلف به الحكم من تخصيص أو تقييد أو نحوه حتى لا يحكم بما يخالف ذلك.

٥. أن يعرف من اللغة وأصول الفقه ما يتعلق بدلالات الألفاظ كالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين ونحو ذلك ليحكم بما تقتضيه تلك الدلالات.

٦. أن يكون عنده قدرة يتمكن بها من استنباط الأحكام من أدلتها.

فهذه الأوصاف ربما لا تجتمع كاملة في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد كانا يجمعان الصحابة ويستشيرونهم في المسائل التي قد تنزل بهم.

قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الإِنْسانُ كَذَلِكَ؛ فَلْيُعرِضْ عَنْهُما فَرْضًا حتمًا -لا شَكَّ وَلا إِشْكالَ فِيهِ! -

وقال في نسخة أخرى: **"فإذا لم يجتمع في الإنسان هذه الأوصاف المستحيلة كان فرضًا عليه حتما الإعراض عن القرآن والحديث، وأخذ دينه من المتون والشروح والحواشي"**.

وهذه هي أصل الشبهة التي قذفها الشيطان في كثير من الناس، فأعرضوا بسببها عن تدبر كتاب الله.

فيقال له: هل أنت من أهل الاجتهاد الذين توفَّرت فيهم هذه الشروط؟

فإن لم تكن كذلك؛ فدع عنك التعرض لفهم القرآن والسنة، فإنَّك لست أهلاً لفهمهما.

وهذه الشبهة حملت كثيرا من الناس على أمور ومنها:

١. التعصب للمذاهب والرجال ولو كان الدليل يخالف المذهب.

٢. التقليد الأعمى للرجال؛ وتعظيم أقوالهم، والرجوع إلى أقوالهم عند الاختلاف وعدم الالتفات للكتاب والسنة والرجوع إليهما.

٣. التقيد بأقوال المذاهب وطرح ما عداها ولو لم يكن ثمَّة دليل.

٤. تفريق الناس ودعوتهم للتعصب بغير حجة ولا برهان.

قال شيخنا يحيى الحجوري في أضرار الحزبية على الأمة الإسلامية (ص: ٢٨):

وانظروا إلى التحزب المذهبي، كيف يحقر أحدهم الآخر، يروي بعضهم حديث يخرج من أمتي رجل يقال له: محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس، وأبو حنيفة سراج أمتي، وهو حديث موضوع مكذوب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتخذ

حديث ويكذب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجل أن يزهد الناس في الشافعي، ومن أجل أن يحبب إليهم أبا حنيفة.

وآخر يقول:

أنا شـــافعي ما حييت وإن أمت فوصـــيتي للنـاس أن يتشـــفعوا.

حصل من بعضهم أن المالكي لا يصلي خلف الشافعي، والشافعي لا يصلي خلف الحني، وهكذا كانت أربعة محاريب في المسجد الحرام، كل واحد يصلي في محرابه، الشافعي له محراب، والمالكي له محراب، والحنفي له محراب، والحنبلي له محراب، عدة مذاهب كل واحد ما يصلي خلف الثاني، تهاجر وتقاطع.

وهكذا الحنفي يقول:

فـلـعـنـة ربـنـا عـداد رمـل على من خـالف قول أبي حنيفة

وأبو إسماعيل الهروي عليه رحمه الله يقول:

أنا حنبلي مـا حييـت وإن أمـت فوصـــيتي للنـاس أن يتحنبلوا

وبعضهم يقول: (لولا مالك لكان الدين هالك). اهـ

قال الشيخ مقبل:

فهذه المذاهب فرقت الناس، وقد تحدينا غير واحد من المتعصبين لهذه المذاهب أن يأتوا بدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يدل على أن المسلم ملزم بالتعبد بمذهب من هذه المذاهب، بل جاء القرآن على كراهة هذا فقال

سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٩].

فهذه المذاهب فرقت الناس وأدخلت بينهم البغضاء والعداوة، وما تعبدنا الله إلا بكتاب الله وبسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وهي مبتدعة ما جاءت في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وما حدثت هذه البدعة إلا بعد القرون المفضلة.

فأصبح التعصب لهذه المذاهب شنيعا، تقدم أقوال أصحاب المذاهب على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ حتى قال منذر بن سعيد الأندلسي:

عـذيري من قوم يقولون كلمـا ... طلبـت دليلا هكـذا قـال مـالـك

فإن عدت قالوا قال ســحنون مثله ... ومن لم يقـل مـا قـالـه فهو آفـك

فإن زدت قالوا قال أشـــهب مثله ... وقد كان لا تخفى عليه المســـالك

فإن قلت قال الله ضـــجوا وأكثروا ... وقـالوا جميعـا أنـت قرن مـحـك

فإن قلت قد قال الرســـول فقولهم ... أتت مالكا في ترك ذاك المســـالك

لم يزل العلماء يتوجعون من التقليد الأعمى الذي باعد الناس عن كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وحال بين الناس وبين كتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وقد ألف العلماء المؤلفات القيمة في التحذير من التقليد.

فنحن نقتني كتب الأئمة الأربعة ونستفيد منها، لكن ننصح إخواننا بالإقبال على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فكتب الأئمة الأربعة تقتنى وتكون مرجعا كغيرها من المراجع.

فالأئمة نستفيد من أفهامهم ونستعين بالله سبحانه وتعالى ثم بأفهامهم على فهم الكتاب والسنة، لأنهم لديهم من الفهم ومن الاطلاع والعلم ما ليس لدينا، وليس معناه أننا متعبدون بأفهامهم. اهـ[1]

(١) إجابة السائل (٣٣٤ - ٣٣٥).

وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْهُما؛ فَهُوَ: إِمَّا زِنْدِيقٌ، وَإِمَّا مَجْنونٌ -لأَجْلِ صُعوبَةِ فَهْمِهِما! -. فَسُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ! كَمْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ -شَرْعًا وَقَدَرًا، خَلْقًا وَأَمْرًا- فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ وُجوهٍ شَتَّى بَلَغَتْ إِلى حَدِّ الضَّرُورِيَّاتِ الْعَامَّةِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة يس: ٧-١١].

قوله: وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى مِنْهُما؛ فَهُوَ: إِمَّا زِنْدِيقٌ، وَإِمَّا مَجْنونٌ -لأَجْلِ صُعوبَةِ فَهْمِهِما!:

أي من طلب الهدى من القرآن والحديث؛ فهو إما زنديق أو مجنون.

والمراد من ذلك بيان أنَّ كثيرًا من الناس أعرضوا عن القرآن والسنة وعن فهمهما وتدبرهما، وانشغلوا بأخذ دينهم من المتون والشروح والحواشي، وظنوا أنَّ تلك المتون هي أساس العلوم، وأنَّه لا مجال لفهم الكتاب والسنة إلا بالرجوع إلى تلك المتون التي تجدها غالبًا تخلو من ذكر الدليل، ثم ترى التعصب الأعمى لها وكأنها دليل لا يجوز مخالفته فقد قال فلان ونص على ذلك فلان، ثم قد تجد من يدعي أنَّ من أخذ بظاهر القرآن والسنة فهو كافر.

وانظر لما قاله أحمد الصاوي في حاشيته على الجلالين تعرف ذلك فقد قال:

"وَلَا يَجُوزُ تَقْلِيدُ مَا عَدَا الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ، وَلَوْ وَافَقَ قَوْلَ الصَّحَابَةِ وَالْحَدِيثَ الصَّحِيحَ وَالْآيَةَ، فَالْخَارِجُ عَنِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ ضَالٌّ مُضِلٌّ، وَرُبَّمَا أَدَّاهُ ذَلِكَ لِلْكُفْرِ ؛ لِأَنَّ الْأَخْذَ بِظَوَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أُصُولِ الْكُفْرِ". اهـ

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله معلقًا على قول الصاوي:

"فَانْظُرْ يَا أَخِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - مَا أَشْنَعَ هَذَا الْكَلَامَ وَمَا أَبْطَلَهُ، وَمَا أَجْرَأَ قَائِلَهُ عَلَى اللَّهِ وَكِتَابِهِ، وَعَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

أَمَّا قَوْلُهُ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَنِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ، وَلَوْ كَانَتْ أَقْوَالُهُمْ مُخَالِفَةً لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ، فَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِجْمَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَنْفُسِهِمْ". اهـ[1]

وكم نرى ممن فُتِن الآن أيضًا بفتنة التأصيل التي يرون أنها لا تكون إلا بدراسة مثل تلك المتون، وأما من انشغل بتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا يُلمز بأنَّه غير مؤصل وأنَّ فهمه قاصر. سبحانك هذا بهتان عظيم.

فما كان أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستقون العلم إلا من الكتاب والسنة، لا يبتغون بذلك بدلًا، ولا يرفعون لكلام أحدٍ غير كلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسًا.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٦٥)

وقد روي عن ابن عباس أنَّه قال: أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقُولُ نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وقال ابْن خُزَيْمَة: "لَيْسَ لأحد قَول مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذا صَحَّ الْخَبَر"

فهذه المتون إنما وضعها أصحابها لتقريب العلوم للأفهام، فجردوها عن الدليل، ولم يكونوا يريدون ممن جاء بعدهم أن يتعلق بها ويجعلها حجة على خلق الله ولو لم يكن هناك دليل على بعض ما يذكر فيه، ولا قصدوا أنَّ من خالفها فقد خالف الكتاب والسنة.

قوله: كَمْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ -شَرْعًا وَقَدَرًا، خَلْقًا وَأَمْرًا- فِي رَدِّ هَذِهِ الشُّبْهَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ وُجوهٍ شَتَّى بَلَغَتْ إِلى حَدِّ الضَّرُورِيَّاتِ الْعَامَّةِ:

فالمتتبع لكتاب الله تعالى يجد من الأدلة الشيء الكثير والتي تنقض قول هؤلاء من وجوه شتى ومنها:

١. أنَّ الله أمر في كتابه بطاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا طاعة غيرهما:

قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ٣٢].

وقال جل جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النور: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة محمد: ٣٣].

٢. أنَّ الله أمر في كتابه بالاعتصام بالكتاب والسنة.

قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: ١٠٣].

٣. أنَّ الله أمر عند الاختلاف بالرجوع إلى الكتاب السنة.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النساء: ٥٩].

٤. أنَّ الله بيَّن في كتابه أنَّ من أطاع الناس فيما لم يكن معهم دليل عليه من الكتاب والسنة فهو إلى الضلال يسير.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٦].

٥. أنَّ التمسك بالكتاب والسنة أمان مِن الضلال.

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

وفي المستدرك للحاكم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**».

قال العلامة الشنقيطي:

"اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ بَعْضِ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ تَدَبُّرَ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَفَهُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ خَاصَّةً، وَإِنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ بِشُرُوطِهِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَهُمُ الَّتِي لَمْ يَسْتَنِدِ اشْتِرَاطُ كَثِيرٍ مِنْهَا إِلَى دَلِيلٍ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ وَلَا إِجْمَاعٍ وَلَا قِيَاسٍ جَلِيٍّ، وَلَا أَثَرٍ عَنِ الصَّحَابَةِ - قَوْلٌ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ أَصْلاً.

بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّفَهُّمِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُمَا، وَالْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ مِنْهُمَا.

أَمَّا الْعَمَلُ بِهِمَا مَعَ الْجَهْلِ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مِنْهُمَا فَمَمْنُوعٌ إِجْمَاعًا.

وَأَمَّا مَا عَلِمَهُ مِنْهُمَا عِلْمًا صَحِيحًا نَاشِئًا عَنْ تَعَلُّمٍ صَحِيحٍ. فَلَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ. وَلَوْ آيَةً وَاحِدَةً أَوْ حَدِيثًا وَاحِدًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الذَّمَّ وَالْإِنْكَارَ عَلَى مَنْ يَتَدَبَّرُ كِتَابَ اللَّهِ - عَامٌّ لِجَمِيعِ النَّاسِ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ الْأَوَّلِينَ بِهِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْكُفَّارُ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسْتَكْمِلاً لِشُرُوطِ الاِجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْأُصُولِ، بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا أَصْلاً. فَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْتَفَعَ بِالْعَمَلِ بِهِ وَالاِهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ إِلَّا الْمُجْتَهِدُونَ بِالْإِصْلَاحِ الْأُصُولِيِّ لَمَا وَبَّخَ اللَّهُ الْكَفَّارُ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الاِهْتِدَاءِ بِهُدَاهُ، وَلَمَا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِهِ حَتَّى يُحَصِّلُوا شُرُوطَ الاِجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةَ عِنْدَ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ، كَمَا تَرَى.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنَ الْمُقَرَّرِ فِي الْأُصُولِ أَنَّ صُورَةَ سَبَبِ النُّزُولِ قَطْعِيَّةُ الدُّخُولِ، وَإِذًا فَدُخُولُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ قَطْعِيٌّ، وَلَوْ كَانَ لَا يَصِحُّ الاِنْتِفَاعُ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ إِلَّا لِخُصُوصِ الْمُجْتَهِدِينَ لَمَا أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ عَدَمَ تَدَبُّرِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَعَدَمَ عَمَلِهِمْ بِهِ". اهـ[1]

وقال رحمه الله:

أَجْمَعَ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ بِالظَّاهِرِ وَاجِبٌ حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ صَارِفٌ عَنْهُ إِلَى الْمُحْتَمَلِ الْمَرْجُوحِ، وَعَلَى هَذَا كُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْأُصُولِ.

فَتَنْفِيرُ النَّاسِ وَإِبْعَادُهَا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، بِدَعْوَى أَنَّ الْأَخْذَ بِظَوَاهِرِهِمَا مِنْ أُصُولِ الْكُفْرِ هُوَ مِنْ أَشْنَعِ الْبَاطِلِ وَأَعْظَمِهِ كَمَا تَرَى.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٥٨)

وَبِمَا ذَكَرْنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الضَّلاَلِ ادِّعَاءَ أَنَّ ظَوَاهِرَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ قَبِيحَةٍ، لَيْسَتْ بِلاَئِقَةٍ. اهـ (١)

وهذا كلام في غاية النفاسة فخذ به.

قوله: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ:

أي بعيدون عن فهم هذا.

قوله: قول الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة يس: ٧-١١].

في الآيات إشارة إلى أن الموفق من وفقه الله.

وكأنَّ الشيخ يشير إلى أنَّ من فهم هذه الأمور وأخذ بالتمسك بالكتاب والسنة؛ فهو موفق بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، وممن هداه الله وسدده لمعرفة الحق واتباعه، ومن ضلَّ عن فهمها والعمل بها؛ فإنما هو بعدل الله، فالله أعلم بما في القلوب، فهو سبحانه يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً وَيُضِلُّ من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا.

قال سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الكهف: ١٧].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٢٦٩)

وقد أتى الشيخ رحمه الله بالآيات من سورة يس استدلالًا على أنَّ من حُجِب عن فهم القرآن فإنما حُجِب عن ذلك لشيء فيه.

قال ابن القيم في شفاء العليل (ص: ٩٥):

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾.

أخبر سبحانه عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم وضمت أيديهم إليها وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئا وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة وجدت هذا المثل مطابقا له أتم مطابقة وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف والله المستعان.

اهـ

وسبب هذه العقوبات بأكملها هو ما كان في أنفسهم وما حصل منهم، والتي ذكرها ربنا في مطلع هذه الآيات فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة يس: ٧].

فهذا تنبيه لأهل الإسلام أن لا يتغافلوا عن كتاب ربهم سبحانه وتعالى بترك تدبره والعمل به، فيعاقبون بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بعد ذلك كتاب ربهم ولا يجدون سبيلاً إلى ذلك.

كما قال الله سبحانه وتعالى عن المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة المنافقون: ٣].

قال العلامة ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٢٥):

أي: إنما قُدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي. اهـ

وقال ابن جرير في جامع البيان (٢٣/ ٣٩٥):

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فهم لا يفقهون صوابًا من خطأ، وحقًّا من باطل لطبع الله على قلوبهم. اهـ

فعلينا معاشر أهل الإسلام أنَّ نؤمن بكتاب ربنا سبحانه وتعالى ونتدبره ونعمل به؛ فإنَّ من ترك الإيمان بكتاب الله سبحانه عاقبه الله عز وجل بأن يحول بينه وبين فهمه والاهتداء به، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الأنعام: ١١٠].

قال العلامة السعدي:

أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبًا لأحوالهم. اهـ

فينبغي على العبد المسلم أن يسارع بالاستجابة لأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأوامر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يركن إلى نفسه وفهمه، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا حال بينه وبين قلبه لم ينتفع بهذا القلب، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤].

قال العلامة السعدي (ص: ٣١٨):

يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك والدعوة إليه، والاجتناب لما نهيا عنه، والانكفاف عنه والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذَّر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه

بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك. اهـ

وختاماً

هذا آخر ما وفقني الله سبحانه وتعالى لكتابته في شرح هذه الأصول الستة العظيمة؛ التي ينبغي على طالب العلم العنايةُ بها، دراسةً وفهمًا، وتعليمًا للناس، فإنَّ من فقِه هذه الأمور وتبصَّر بها وعمِل بمقتضاها فهو ممن وفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للخير.

وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي**". متفق عليه من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمعنى أنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلِّغ الوحي ولا يخصُّ به أحدًا دون أحد. (**وَاللَّهُ يُعْطِي**) كل واحدٍ فهمًا على ما يتفضَّل به سبحانه وتعالى على عبده.

وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه وأن يجعلها آثارًا صالحة تجري علينا بعد موتنا، وأن يعفو عن الخطل والزلل.

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أولا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وَصلَّى اللهُ عَلى نبينا مُحَمَّدٍ، وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلى يَوْمِ الدِّينِ.

كان الفراغ منه عصر يوم الثلثاء

الثاني مِن شهر رجب لسنة ألفٍ وأربعمائة وأربعٍ وأربعين من الهجرة النبوية

على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم

جدول المحتويات

مقدمة الشيخ الفاضل ٢
أبي عبد الله عبد الرحمن الشميري ٢
بسم الله الرحمن الرحيم..... ٣
أهمية هذه الرسالة ٣
قال شيخُ الإسلامِ مُحمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ رحمَهُ اللهُ:..... ٥
الأَصْلُ الأَوَّلُ ١٣
الأَصْلُ الثَّاني..... ٢١
الأَصْلُ الثَّالِثُ..... ٣٨
الأَصْلُ الرَّابِعُ..... ٥٤
الأَصْلُ الْخامِسُ..... ٧١
الأَصْلُ السَّادِسُ ٨٤
وختامًا..... ١٠٣